رواية

الشيخ والقاتل المأجور

ا عادل مناع



الدار العالمية للنشر والتوزيع

تُشرّق.. تُغرّب.. إلى الشمال والجنوب

تشرد...

ستبقى أصداء النداء العتيق تتردد في

أعماقك...

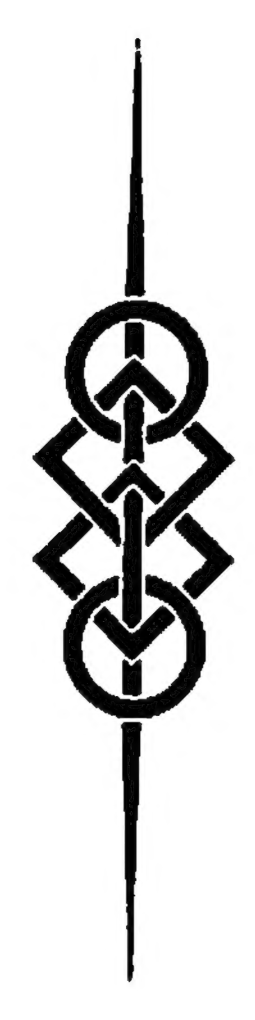
هو ذلك المركوز في النفس البشرية...

يثير بداخلك الحنين إلى أن تكون...

المؤلف



31 ش الصالحى - محطة مصر - الاسكندرية
تليفون: 002034970370 - فاكس: 002033907305
محمول: 01005406403
E-mail: alamia_misr@hotmail.com



الشيخ..

والقاتل المأجور

الشيخ..
والقاتل
المأجور

بسم الله الرحمن الرحيم

الدار العالمية
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع

٢٠١٥/٢٦٣٠م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-744-072-1

الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر- الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٠٥٤٠٦٤٠٣ ٠٢+/ ت: ٤٩٧٠٣٧٠ ٠٢٠٣+/ تلفاكس: ٣٩٠٧٣٠٥ ٠٢٠٣+

E.mail: alamia_misr@hotmail.com

الشيخ..
والقاتل المأجور

رواية

بقلم

عادل مناع



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الكاتب

حلب عام ١٢٨٠م

دخل شاب لم يتجاوز العشرين من عمره إلى إحدى دور حلب، لتستقبله عجوز بالعناق والترحاب، وهي تقول: كيف حالك يا عبد الرحمن، وكيف حال والديك وإخوتك؟ لم أرك منذ أسبوع كامل.

أجابها الشاب وهو يربت على كتفها بعدما جلسا سويًا على أريكة قديمة: عذرًا يا جدتي، فولدك يضنيني في العمل وكأنني عبد اشتراه من سوق النخاسة.

قالها وقد انخرط الاثنان سويًا بعدما داعبته العجوز بضربة خفيفة على كتفه وهي تقول: كيف تجرؤ وتتحدث هكذا عن ابني الوحيد أيها الجني الصغير؟!

تصنع عبد الرحمن نظرة حزينة وهو يقول: وأنا، ألست ولدك؟

زادت كلماته العجوز ضحكًا وهي تقول: أنت بالطبع ولدي أيها المخادع، ابن ولدي هو ابني أيضًا.

باغتها عبد الرحمن بسؤال مفاجئ: جدتي، كيف حال جدي؟ أما زال مريضًا منذ تركته آخر مرة؟

قالت العجوز وقد ارتسمت علامات الحزن على وجهها: أنت تعرف يا ولدي طبيعة هذه السن، لقد هرم جدك ووهنت عظامه، وإني لأتخوف عليه.

سألها وقد أكسبته كلماتها حزنًا مماثلًا: أين هو يا جدتي؟

أجابته العجوز: بالداخل يا بني، يعكف رغم مرضه على الكتابة.

قلب عبد الرحمن كفيه في دهشة وهو يقول: لست أدري ماذا دهاه؟ أصار كاتبًا في آخر عمره؟ لماذا يجهد نفسه في كتابة مئات الورقات؟ وما الذي لا يكتبه؟ ولماذا لا يطلعنا عليه؟

تنفست العجوز بعمق وهي تقول: كلما سألته يقول: سأخبرك فيما بعد، لا عليك يا ولدي، دعه وكتابته، فهي سلوانه وأنيسه، لماذا نكترث بمعرفة ما يكتب طالما كان ذلك يسعده، لا عليك يا ولدي.

نهض عبد الرحمن وهو يقول: سأدخل لأطمئن عليه، فقطع بعض الخطوات حتى وصل إلى حجرة في البيت،

وألقى نظرة داخلها على شيخ كبير سقط حاجباه واحدودب ظهره واشتعل رأسه شيبًا، وقد انهمك في كتابة أوراق كثيرة متراصة فوق بعضها البعض، بما يوحي للناظر أن الرجل قضى دهرًا من عمره في تسطيرها.

كان مشهد الرجل غريبًا حقًّا، فلقد جعل يكفكف دموعه بطرف ثيابه وهو يكتب، وما يكاد يخط بيده جملة أو اثنتين حتى تبادره الدموع، ما جعل عبد الرحمن يقف مشدوها على مقربة من جده الذي لم يعلم بأمر وجوده.

«جدي، جدي» لم ينتشل الشيخ مما هو فيه سوى الكلمة الثانية بعد أن ضلت الأولى طريقها إلى سمعه من فرط انهماكه في الكتابة، فاستدار بوجهه الحزين إلى حفيده، ليمنحه ابتسامة رقيقة وهو يقول: عبد الرحمن ولدي، تعال إلى جدك، قالها وهو يحاول النهوض، فعاجله الشاب بقبلة على يده ولمسة حانية على كتفه، حتى لا ينهض الشيخ الضعيف من مكانه.

الشيخ: كيف حالك والديك وإخوتك جميعًا؟

عبد الرحمن في خفوت وكأن المشهد الفائت مازال ماثلًا أمامه: كلهم بخير سوف يأتون إليك بعد غد يا جدي، جميعهم بخير ويقرئونك السلام.

هز الشيخ رأسه مبتسمًا بينما كان الشاب يختلس النظر إلى ما يسجله جده، ففهم الأخير مراده فقال: سوف تقرأه حتمًا بعدما أفرغ منه، لم يتبق سوى كلمة أخيرة أدونها، وبعدها يمكنك قراءته كما تشاء ووقتما تشاء.

تبسم الشاب قائلًا: أتلهف لمعرفة ما تكتبه يا جدي، أهو سر حتى لا تسمح لي بقراءته؟ مر عليك شهران وكلما جئت لزيارتك رأيتك على هذا النحو وكأنك لا تفارق مكانك.

أجابه الشيخ وهو ينظر إلى كومة الأوراق التي بدت مثل كتاب ينقصه دفتان: ليس سرًّا يا ولدي، لكنها أحداث فيها عظة وعبرة، خشيت أن يدركني الأجل وتذهب أدراج الرياح، وأود أن يقرأها من يقرأها كاملة، هذا كل ما في الأمر.

تذكر عبد الرحمن دموع جده خلال الكتابة، فسأله: جدي معذرة، لماذا دمعت عيناك وأنت تكتب؟ لقد رأيتها تسيل على خديك وتمسحها بثيابك.

نظر الشيخ إلى حفيده بشيء من الارتباك سرعان ما تكحلت تلك النظرة بالحزن، فأجابه: لا شيء، يا ولدي، فقط تأثرت بشيء ما كتبته، فسالت دموعي دونما إدراك.

هز الشاب رأسه بابتسامة شاحبة، وهو يفكر في أمر هذا الشيخ الذي يوحي منظره بأنه على وشك مفارقة الأحياء، فقطع الجد عليه موارد الأفكار وهو يقول: لن أدعك الليلة، سوف تبيت مع جدك، وهذا أمر.

عاود الشاب ابتسامته الشاحبة وهو يقول: أنا بالفعل جئتك وأنا أعتزم المبيت معك، وهنا بجانبك، سنترك هذه العجوز الشمطاء تنام وحدها في فناء البيت.

ضحك الاثنان، وظلا يتجاذبان أطراف الحديث مليا، حتى بدأ الشيخ في التثاؤب كالذي غزاه سلطان النوم، وبدأ يدافعه وهو مدد على سريره كطفل صغير يفرك عينيه، إلا أن وهنه قد جعله يستسلم في يسر إلى زيارات النوم الرتيبة، فأسبل عينيه وغرق في سبات عميق.

وأما عبد الرحمن، فقد تمدد بجوار جده وهو يمسح على لحيته البيضاء تارة، وعلى جبينه تارة أخرى كالذي يداعب طفلًا أثناء نومه، ثم حانت منه التفاتة إلى تلك الأوراق المتراكمة على مائدة أرضية.

نظر إلى سقف الحجرة برهة، ثم عاود النظر إلى الأوراق، وكأنما ينازعه الفضول في قراءتها، وما هي إلا هنيهة حتى استسلم لرغبته الجارفة، ونهض برفق من جوار جده، فافترش الأرض ويده تتسلل إلى الأوراق برفق، وبدأ يطالع ما كتبته تلك الأنامل المتهالكة.

بدأ الشاب يقلب الورقات فتبسم وهو يقول: ما هذا يا شيخ جلال؟ تكتب قصة؟ لكنه سرعان ما تلاشت الضحكة، وهو يقلب مزيدا من الصفحات، فبدت على وجهه أمارات اليقظة التي تتأبى على النعاس، واتسعت حدقتاه مرارا وهو يقلب ورقة تلو ورقة.

تألقت عيناه مما يقرأ، رغم أنه لم يدرك وقتها أهي قصة واقعية أم من نسج خيال جده الشيخ الفاني

لكنه لم يستغرق كثيرا في التفكير بهذا الأمر، حيث استولت السطور على كيانه، وطال به الوقت وهو يقرأ، ويقرأ، ويقرأ............

في بلاط الوزير

دمشق، عام ١٢٣٠م قبل خمسين عامًا

استأذن قائد الشرطة بدمشق للدخول على وزير الملك الأشرف، وما هي إلا لحظات حتى وقف بين يديه، وهم بالكلام لولا جلوس ندماء الوزير حوله.

قائد الشرطة: مولاي الوزير هل يسمح لي بالتحدث إليه على حدة، فالأمر عاجل وخطر.

أشار الوزير لجلسائه فانصرفوا وهم يقدمون التحية لوزير البلاد، والذي التفت بدوره إلى قائد الشرطة قائلًا: وما ذلك الأمر الجلل الذي أردت أن تحادثني فيه على انفراد يا جعفر؟

قائد الشرطة: مولاي، لقد وردتني معلومات مؤكدة عن وجود مجموعة من الشباب تعتزم اغتيال الشيخ.

هز الوزير رأسه متسائلًا: أي الشيوخ تقصد؟

أجابه قائد الشرطة على الفور: الشيخ محيي الدين يا سيدي.

اتسعت عينا الوزير في دهشة قبل أن يعاود السؤال: من الذي يريد قتله يا جعفر؟ ولماذا؟

قائد الشرطة: أنت تعلم يا مولاي تلك الفتاوى التي أصدرها بعض علماء دمشق بكفره وزندقته، الأمر الذي أغرى بعض الشباب المتحمس لقتله، ولا أدري لماذا يتهاون مولانا الملك الأشرف بحق هؤلاء القوم؟

حك الوزير ذقنه في قلق وهو يقول: الأمر ليس سهلًا كما تظن يا جعفر، هم علماء أجلاء يعرفهم القاصي والداني، والناس متأثرون بهم، يسمعوا لهم ويطيعوا، لا نريد الوقوع في صدام مع رجال العلم، خاصة في تلك الفترة التي يغيب فيها الملك الأشرف عن البلاد.

هز قائد الشرطة رأسه برفق قائلًا: عقلكم أرجح يا مولانا الوزير، ورأيكم سديد لا ريب، ولكن يا مولاي ماذا سنفعل إزاء تلك المؤامرة؟

صمت الوزير قليلًا وهو يجوب المكان ذهابًا وإيابًا مشبكًا يديه وراء ظهره، وبدا عليه الإغراق في التفكير، ثم

جلس بعدها على كرسيه فقال: لا يا جعفر، لن آمن عليه أن يكون في منزله، قد يجدون حيلة أو أخرى.

قائد الشرطة: مرني يا مولاي بما ترى.

الوزير: أفكر في أن يقيم الشيخ لدي ريثما تقوم بعملك وتكشف المتآمرين وتقبض عليهم، وهنا لن يستطيعوا إليه سبيلًا، أو على الأقل حتى يعود مولانا الملك الأشرف لينظر في الأمر بنفسه.

هتف قائد الشرطة: نِعم الرأي يا مولانا الوزير، هل أذهب لكي أحضر الشيخ بين أيديكم يا مولاي؟

الوزير: اذهب فائتني به يا جعفر لكن لا تخبره بالأمر قبل أحدثه أولًا، وسوف نعرض عليه الأمر بغير إلزام، لا نريد أن نكرهه على شيء لا رغبة له فيه.

هم قائد الشرطة بالانصراف بعد أن قدم التحية للوزير، إلا أن الأخير قد استوقفه: جعفر.

قائد الشرطة: أمر مولاي الوزير.

الوزير: أريدك أن تلقي القبض على المتآمرين قبل أن يعود مولانا الملك الأشرف من سفره، على أن تُبقي أمرهم

في طي الكتمان، صمت برهة ثم استطرد: لا أريد أن يتحدث العلماء أننا نمالئ محيي الدين بن عربي، نحن في غنى عن مزيد من الاضطرابات يا جعفر، خاصة وأن أفكار الرجل غريبة بحق.

قائد الشرطة: أمر مولاي.

الوزير وهو ينظر في عيني قائد الشرطة: وفي نفس الوقت لا أريد أن يحدث مكروه للشيخ يا جعفر، وإلا ستدفع أنت الثمن.

أمسك قائد الشرطة برقبته بصورة تلقائية وهو يقول في اضطراب: فليطمئن مولاي، رقابنا قبل رقبة الشيخ.

انطلق قائد الشرطة تاركًا الوزير مستغرقًا في التفكير، وهو يتمتم قائلًا: نحن نحتاج إلى وجودك بالفعل يا ابن عربي، إنها السياسة، أفكارك مقابل أفكارهم، ويستمر الصراع، واستطرد ضاحكًا: لصالحنا.

الفريــــق

السماء صافية، تتألق في جيدها النجوم، تحيط بالقمر ليلة تمامه، فيرسل أنواره الفضية إلى تلك البقعة النائية عن حلب، فتضفي على سكونها روقًا وجمالًا.

وطريق موحش تقبع على أحد جانبيه أشـجار سامقات، وصخـور راسيات في الجهة المقابلة، لا تسـمع ثَـمَّ غير عواء الذئـاب عـلى الأرض ونعيق البـوم في الفضاء، تـراه ممهدا بما يدل على أنه معبر للمواكب والقوافل.

وبـين الصخـور ربـض جمـع مـن الرجـال وحديثهـم بالهمسات، وآذانهم صاغية ينتظرون أن ينطلق ذلك الصوت المميز الذي يأذن لهم في الخروج.

«تأهبـوا يـا رجال، فالقافلة بحسـب تقديري سـوف تمر مـن هنـا بعد فترة وجيزة، ومـا إن تأتينا الإشـارة حتى نزاول عملنا».

نطق بها رجل قوي الصوت يبدو أنه قائد تلك المجموعة من قطاع الطرق.

وتابع حديثه: كما اتفقنا من قبل، ما إن تتوسط القافلة الطريق حتى يهاجم سعد وإبراهيم وجابر المقدمة، بينما يتولى الهجوم على المؤخرة عبد الملك، سهم، وعطاء، أما أنا فسوف أغير من ناحية الوسط، وسيلحق بي رافع بعد أن يطلق الإشارة ويبدأ الهجوم، هل استوعبتم الخطة؟

رجاله بحزم هامس: نعم يا منصور، ونحن على أهبة الاستعداد.

المنصور: وأذكركم بأننا سوف نلتقي كالعادة في ذات المغارة بعد أن نجمع الأموال، ولتعلموا أن القافلة يحرسها حوالي عشرة رجال مسلحون، فلتحذروا، لا أريد أن أفقد أحدًا من رجالي.

عبد الملك: نحيا سويًّا ونموت سويًّا يا منصور.

عطاء مبتسمًا: لا تخف يا خير زعيم، رجالك حريصون على العمل معك وقتًا أطول.

بسط المنصور كفه ليتلقى أكف رجاله، ثم وضع يده الأخرى فوقها جميعًا قائلًا: هذه لـ رافع.

مكث الرجال بعدها ساعة حتى استبطأ بعضهم الإشارة فترك نفسه للنعاس، إلا أنهم انتفضوا فزعين على صوت الإشارة المتفق عليها، وزعيمهم اليقظ يقول: هيا يا رجال ترقبوا ظهور القافلة.

وما إن مرت القافلة وصار أوسطها تجاه الفريق حتى هبوا من أماكنهم كالإعصار وقلوبهم متعلقة بالغنائم، وبأن يعودوا بعددهم كاملًا دون نقصان.

واستبسل حراس القافلة في الدفاع عنها، إلا أن عنصر المباغتة قد جعل الغلبة لقطاع الطرق الذين ألفوا الإغارة على هذا النحو، ودأبوا على التعامل مع تلك المواجهات وإن كانوا أقل عددا.

تقدم مهاجمو المقدمة والمؤخرة والتحموا بسيوفهم مع الحرس، في الوقت الذي واجه المنصور وحده ثلاثة منهم في الوسط حول الهوادج، واستطاع أن يطعن أحدهم بعنف وأرداه قتيلًا، وظل في مواجهة الاثنين الآخرين، ينقل سيفه في خفة بينهما، فعاجل أحدهما بضربة قوية وقعت على ترسه

فسقط أرضًا، ثم التفت إلى ثانيهما وناوشه ثم وضع السيف أسفل بطنه.

وفي تلك اللحظة لم يتنبه المنصور للحارس الذي شهر سيفه وهم بأن يفتك به، وفوجئ بمن يدفعه بقوة وهو يقول: احترس يا منصور.

كان هذا رافع الذي أطلق الإشارة من بعيد ثم لحق بزملائه ليشاركهم الهجوم، وعندما رأى الحارس وقد همَّ بمباغتة المنصور، دفع قائده وتلقى الضربة على عاتقه.

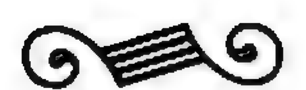
وما إن استوعب المنصور الموقف حتى تطاير الشرر من عينيه وهو يصرخ بصوته الجهوري ويطيح بالحارس ويرديه قتيلا.

تجمع أعضاء الفريق بعد أن أجهزوا على حملة السلاح، وأما العزل والنساء والأطفال فقد وقفوا يرتجفون بعد أن فر منهم من فر، ولا يدرون هل يتركهم قطاع الطرق بعد استلاب أموالهم، أم يجهزوا عليهم.

«أنتم آمنون على دمائكم، نحن نقتل من أجل المال، وقد حصلنا عليه، لا حاجة لنا بقتلكم» قالها المنصور ثم استدار

إلى رجاله: هيا اجمعوا الأسـلاب، وأنا سأحمل رافعًا على ذلك الجواد ولتلحقوا بي.

ساق المنصور حصانًـا قويًّا استلبه من القافلـة وأردف خلفه زميله المصاب الذي أصابه الإعياء، ثم انطلق به كالريح إلى حيث مكان تجميع الأسـلاب وقلبه وجل على ذلك الذي عرّض نفسـه للموت فداء لزعيمه، وسـابق الريح لكي يصل سريعًـا ويضمد جراحـه، فرفع وجهه إلى السـماء وهو يقول: يااااااارب.



دموع المشيب

عبر ذلك الشيخ الذي اشتعل رأسه شيبًا سوق حلب، وهو يسير بخطوات بطيئة تناسب ظهره الذي احدودب، بينما كانت عيون الباعة والمارة ترمقه بصورة لافتة للانتباه.

وفي طريقه اصطدم به شاب كان يسير مسرعا، فسقط الشيخ الضعيف على الأرض، فما كان من الشاب إلا أن التفت إليه بفزع وهو يقول: سامحني أيها الشيخ، معذرة لم أقصد إيذاءك، هل أصابك مكروه يا سيدي؟ هل أحضر لك الطبيب؟

الشيخ: لا عليك يا ولدي أنا بخير، اذهب إلى حال سبيلك، وهنا تناهى إلى سمع الشيخ المسن صوت رجلين يتناجيان، يسأل أحدهما الآخر: ما هذا؟ لماذا كان هذا الشاب فزعا على هذا النحو؟ هل الشيخ من الوجهاء أو العلماء؟

أجابه صاحبه: أنت لا تدري من هذا لأنك غريب عن هذا الحي، إنه والد المنصور، أشهر القتلة وقطاع الطرق، وهذا الشباب يخشى على نفسه، فلو أصاب الشيخ مكروه بسببه فقل على روحه السلام، إنه شيطان حقيقي.

«قلت لكم مرارا المنصور ليس ولدي، لقد تبرأت منه، ألا تفهمون، تبرأت منه» قالها الشيخ بغضب جم وهو يستأنف مسيره، إلا أن أحدًا لم يجرؤ على الحديث.

وصل الشيخ إلى منزل قديم يدل على فقر أصحابه، وطرق الباب بوهن، فما هي إلا لحظات حتى فتحته امرأة عجوز وهي تأخذ بيد الشيخ المتهالك والذي افترش الأرض ليلتقط أنفاسه.

«ما لي أراك مكفهر الوجه يا همام؟ هل أصابك مكروه».

قالتها الزوجة باهتمام وهي تمسح العرق عن جبين زوجها الذي اجتمع له الضعف والحزن فبدا شاحبا.

همام: كالعادة يا هند، نظرات ترمقني في الغدوة والروحة، الناس يعاملونني بخوف وحذر، كل ذلك بسبب ولدك المنصور.

هند: يا همام، مهما صار فهو ابنك، وادع الله بالهداية له.

همام: لا تقولي ولدي، أنا لست له بوالد.

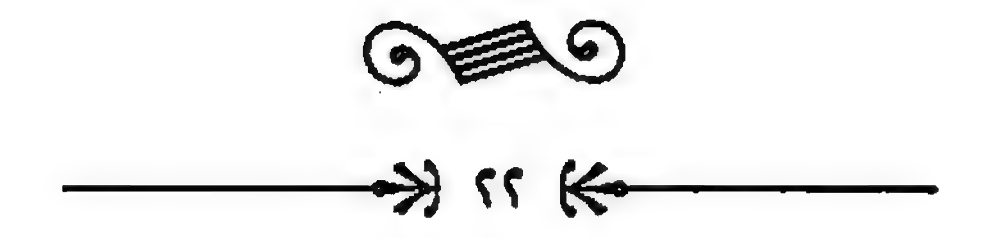
صمتت المرأة حتى لا تؤجج نيران غضبه، وبادلها ذلك الصمت مسندًا رأسه إلى الجدار، ثم قال والحزن يعتصره:

الولـد الوحيد الـذي وهبنيه الله بعد طـول انتظار وقد كبرت سـني، يصبح مجرمًـا وقاتلًا وقاطع طريـق؟ كيف لي أن أطيق ذلك، لقد جلب لي العار وأنا الذي عشـت طوال عمري بين الناس مرفوع الرأس برغم فقري.

ترقرقـت عينا الأم بالدموع وهي تنتحب قائلة: لا أدري بـم أجيبك يـا همام، فـما أصابك قـد أصابنـي ولا يغيب عن ذهني، ولكن مع ذلك...

قاطعهـا الشـيخ في غضب: نعـم حفظت مـا تنطقين به، سـوف تذكريني بـما حدث لي منـذ عشر سـنوات، وأنَّ ذلك هو الذي صـيره مجرمًا، أليس كذلـك؟ وأعيدها عليك مرارًا وتكرارًا يا هند، لا شيء في الحياة يُكره الإنسان على أن يكون مجرمًا.

ازداد نحيـب الأم وهي تقول بصوت متحشرج: إنه ابن بطني يـا همام، ولدي، قالتها ثم جثت عـلى ركبتيها وأطلقت لدموعهـا العنـان تسـقي الأرض التي تقلهـا، وتركت عقلها يسبح ويسبح في ذكريات الماضي.



حديث الساعة

تحلق جمع غفير من الناس في أحد مساجد دمشق حول عالم تظهر عليه سمات الوقار، وبدت نبرة حديثه مرتفعة، والناس كأن على رؤوسهم الطير، لا تفارق أبصارهم محيّا ذلك العالم، والذي قال من جملة ما قال:

«وإنا معاشر أهل السنة لا نكفر أحدًا من المسلمين جزافًا، ونعف ألسنتنا عن الخوض في دين الناس ما لم يكن كفرهم صريحًا وانتفت عنهم عوارض الأهلية وأقمنا عليهم الحجة بالكتاب والسنة.

وأما هذا الملقب بـ الدين بن عربي، وما هو بمحيي الدين أبدًا، فإنا قد حكمنا فيه بكتاب الله وسنة نبيه أنه بمصنفه الموسوم بـ فصوص الحكم، قد فارق ملة محمد ﷺ.

إنه ينعق بوحدة الوجود، ويزعم أن الرب عبد والعبد رب، وأن كل موجود هو عين الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

علت همهمات الحاضرين وجرت على ألسنتهم الحوقلة والاسترجاع والاستغفار مما فُجعت به أسماعهم، إلا أنهم

استأنفوا الصمت والاستماع باهتمام إلى حديث الشيخ، والذي استطرد بانفعال حمَّر وجنتيه واستدر عرق جبينه:

لقد حدا هذا الاعتقاد الفاسد بصاحبه إلى القول بأن فرعون كان صادقًا عندما قال للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، لأنه علم أن كل موجود هو الله بزعمه.

وعدّ ذلك الخبيثُ مشركي العرب وعبدة الأوثان موحدين، زاعمًا أنهم في الحقيقة لم يعبدوا سوى الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فأي دين هذا الذي يجعل الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا؟! إنْ هذا إلا اختلاق.

ثم استعبر الشيخ وخالج البكاء صوته وهو يقول: والله إن القلب ليتفطر على أن صار ببلاد الإسلام من يجهر بذلك الكفر البواح.

هنا صاح أحد الجالسين بغضب: أفلا نقتل هذا الخبيث يا شيخنا ونريح المسلمين من شره؟

الشيخ: لا يا أخا الإسلام، ليس لنا أن نقوم بذلك، فالأمر موكول إلى ولاة الأمر، نسأل الله أن يهديهم إلى ما يحب ويرضى، وأن يحكموا فينا كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

نهض رجلٌ هَرِمٌ وهو يهتف: وما العمل يا أبا عمر إزاء هذه الفتنة، أوما علمت بأن أفكاره العفنة قد راجت وانطلت على كثير من الناس؟

الشيخ في أسى وحزم يهز رأسه قائلًا: الأفكار لا تواجه إلا بالأفكار يا والدي، إن أجلّ ما تقدمونه لدينكم وعقيدتكم توعية الناس تجاه هذه الأباطيل التي ما أنزل الله بها من سلطان، اجعلوا منها حديث الساعة، لا تتوانوا في تبصرة الناس، وانشروا العقيدة الصافية التي جاء بها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأُزهقت في سبيلها أنفس وسالت من أجلها دماء حتى تأتيكم على صفائها ونقائها.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك».

ختم العالم مجلسه بذلك الدعاء ثم شرع في الانصراف، وترك الناس يخوضون في ذلك الحديث الذي استولى على اهتمامهم، حديث الساعة.



مبادئ الذئب

دلـف المنصـور إلى الغار وهو يحمـل صديقه الجريح على كتفـه، وقد تلطخـت ثيابهما معـا بالدماء، ومـا إن دخل حتى وضعه على الأرض وسـارع بإشعال نار لإحماء خنجر يكوي به الجرح ويقطع نزفه.

وبينما كان نصل الخنجر يُحمى عليه في النار، شق المنصور قميـص رافع ليظهر الجرح وجعل يمسـح عنـه الدماء بقطعة من القماش، ويكتم كذلك الدم المتدفق من عاتقه.

تنـاول المنصور قطعة أخرى من القماش أغرقها بالماء، ثم اقترب من صاحبه في إشفاق، وهو يقول: أعلم أنها ستؤلمك، وأعلم كذلك أنك جَلِد يا رافع، اضغط بأسنانك على القماشة، لا تخف ستكون بعدها بخير حال.

هز رافع رأسـه وهو يتفصد عرقا، في الوقت الذي تناول منصـور الخنجـر وقربـه إلى عاتـق صاحبـه، وضغـط به على الجرح، فانطلقت من حنجرة رافع تأوهات زلزلت الغار.

«ماذا حدث؟».

نطق بها بقية رجال المنصور بعفوية وهم يدخلون الغار وقد وضعوا على الأرض ما استلبوه من أموال القافلة، وما إن نظروا إلى الرجلين حتى استوعبوا الحدث، فالتفوا حول صاحبهم الجريح والذي راح في غيبوبة من فرط الألم، وجعل هذا يمسح العرق عن جبينه، وهذا يمسك بيده، وهذا يربت على صدره.

وأما المنصور فقد استلقى على ظهره يقلب بصره في سقف الغار وهو صامت، ووجه خال من أي تعبير، من ينظر إليه لا يستطيع أن يحدد كنه حاله.

اعتدل المنصور حتى يتفقد الأسلاب، ففوجئ بامرأة تقف منزوية في زاوية الغار وهي ترتجف رعبا، تقلب بصرها بفزع في الرجال، وكأنها تستشرف ما هم فاعلون بها من خلال قسمات وجوههم.

«من أنت يا امرأة؟».

نطق بها المنصور في دهشة، فهمت المرأة بتحريك شفتيها بالجواب، لولا أن ابتدره سعد قائلًا: كانت في أحد الهوادج

تصطحب معها صندوقًا من الحلي، واستطرد ضاحكا: ووجدتها حسناء، فقلت قد نبيعها في....

لم يكمل عبارته حتى فوجئ بصفعة مزلزلة على خده من كف المنصور، والذي اتسعت حدقتاه غضبًا وكأنهما تقذفان الشرر، ثم قال: ومنذ متى نعتدي على النساء أيها الوغد؟!

أمسكه من مجمع ثيابه يهزه بعنف وهو يكرر: منذ متى نعتدي على النساء؟ أخبرني.

لم ينطق سعد بكلمة واحدة يدافع بها عن نفسه، وأطرق برأسه إلى الأرض، فأرخى المنصور يديه وخلَّى سبيل سعد، وكأنه يحاول استعادة هدوئه وهو يقول: أين صندوقها؟

انتفض جابر وبدأ على الفور يُخرج من بين الأسلاب صندوقا محلى بالفضة من أعلاه، دفعه إلى المنصور في وجل، وما إن أمسكه الأخير بيديه حتى اقترب من المرأة وأعطاها إياه قائلًا: لا عليك يا امرأة، أنت في أمان، وسوف أرافقك في الطريق حتى تلحقي بالقافلة.

لم تصدق المرأة ما سمعت وخفق قلبها بشدة من فرط سعادتها وهي تقول: أشكرك يا سيدي، أشكرك، وإن أردت أن تأخذ...

المنصـور بغضـب: اصمتي يـا امـرأة، لمـاذا تثرثرين، لو أردت أموالك فمن ذا يمنعني؟.

عـاد الفزع يتملك المرأة من جديد فسـارعت بالاعتذار، وأطبقت شفتيها عن الكلام.

اسـتعاد المنصور نـبرة صوته الهادئة وهـو يقول: نحن لا نعتدي على النسـاء أو نسـلبهن، والتفت برأسه إلى سعد وهو يقول: وهذه المرة الأولى والأخيرة التي يحدث فيها ذلك.

اسـتدار إلى عبـد الملك وقـال: عبد الملـك، جهز لي عشر صُرَر من الدنانير.

عبد الملك على الفور: نعم يا زعيم.

المنصـور: سـأصطحب المـرأة إلى حيـث تسـير القافلـة، وسـوف أوافيكـم صباحا فلدي بعض أمور لا بـد وأن أنتهي منها، وأنت يا امرأة اتبعيني.

خرج المنصور من الغار بصحبة المرأة، وما إن سمع رجاله صهيل الجياد وهي تنطلق حتى شرعوا جميعا في الضحك عدا سعد، والذي ما زال يمسك خده الأيسر.

إبراهيم يضع كفه على خده مازحًا: ويحي، لقد احمرَّ خدي من تلك الصفعة.

بادله عطاء التهكم المازح بقوله: أرأيت إلى رنين الصفعة كيف تردد في الغار وكأنه لحن شجي؟

عاودوا الضحك بينما كان سعد صامتًا، فشعروا بالحرج، فأسرع سهم يقول: ما بالك يا سعد؟ نحن نمزح معك يا صديقي، وأنت تعلم أن المنصور سريع الغضب ولكن لا نشك في محبته إيانا، هو لنا أخ أكبر لا زعيم فحسب.

سعد في ابتسامة باهتة: أعلم أيها البلهاء، المنصور هو الإنسان الأوحد الذي يمكنني أن أتحمل منه مثل هذه الأمور، أنا فقط يحار عقلي في ذلك الرجل، دائمًا يفاجئنا بما يدهشنا، يحمل في شخصيته أمورًا كثيرًا لا تتسق مع بعضها البعض.

مط عطاء شفتيه قائلًا: معك حق، طراز فريد من الناس، ذئب وقاتل مأجور، وقاطع طريق، وسريع الغضب، تشعر منه أحيانًا أن غضبه سوف يزيل الجبال، وفي الوقت ذاته هو

شـهم ذو مروءة، يكره الكـذب والخيانة، وفيّ العهد، عطوف على الفقراء.

جابر: نعم، لقد راقبته ذات مرة عندما وجدته يأخذ عشر صرر من كل سِلب، ثم يذهب بها في جنح الليل، فرأيته يتلثم وينزل المدينة يطرق أبواب بعض الفقراء ويعطيهم.

أمسك عبد الملك برقبة جابر مازحا وهو يقول: تتلصص على الزعيم؟ لأخبرنه حتى يقطع رقبتك.

جابر: وأنا سـأخبره أنك أخفيت خنجرًا ذهبيًا من أموال قافلة الشهر الماضي.

«هل تذكرون يا رفاق؟».

انتشـلتهم تلك العبارة من ضحكاتهـم المتعالية، وكانت أول ما نطق رافع بعدما أفاق من غيبوبته، فهرع إليه الجميع في سرور، وهـم يهتفون: رافع، حمدا لله على سلامتك يا رجل.

تابـع رافع حديثه بوهـن: أتذكرون عندمـا جمَعنا للعمل معه للمرة الأولى، هل تتذكرون ماذا كان يشترط فيمن يعمل معه؟

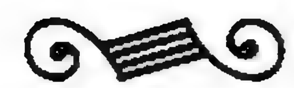
سهم: نعم، كان يشترط أن يكون الرجل وحيدا في دنياه، لا أب له أو أم، ولا زوجة أو ولد.

إبراهيم: لم يكن يرغب في أن تحترق قلوب ذوينا، بالفعل هو طراز غريب من الرجال.

عبد الملك: لم يكن يريد أن يتجرع أحد من ذات كأسه.

عبد الملك واضعًا كفه على خده مازحًا: آه، ما أشدها من صفعة.

قالها بحركة مسرحية، فانهال سعد عليه ضربا، وسط ضحكات تعالت من الجميع.



المخبأ الآمـن

توقـف قائـد الشرطة وبرفقته كوكبة مـن الجند أمام أحد بيـوت المدينـة وطـرق بابه، فإذا بصـوت جارية مـن الداخل تقول: من بالباب؟

أجابها قائد الشرطة: مولانا الوزير يريد الشيخ في الديوان على وجه السرعة.

الجارية: نعم سأخبر سيدي محيي الدين.

فُتح باب المنزل ليخرج منه شيخ كبير كث اللحية، طويل الشـارب وهو يفرك عينيه قائلًا: مرحبا بقائد الشرطة، هل لي أن أعرف لماذا يريدني الوزير بعد أن جاوزنا منتصف الليل؟

قائـد الشرطـة: معذرة يا شـيخنا الجليل عـلى إزعاجكم ولكـن الوزيـر يريدكم لأمـر بالغ الأهمية ليـس لي أن أخبر به من تلقاء نفسي.

الشيخ: حسنًا، حسنًا، سوف أرتدي ثيابي ثم أمضي معك إلى حيث الوزير.

مضى وقت قصير قبل أن يخرج الشيخ ويصطحب قائد الشرطة ورجاله قاصدين الديوان، وسار الشيخ بفرسه إلى جانب قائد الشرطة، وما إن صارت بينهما وبين الجند مسافة كافية لأن يتحدثا دون أن يسمعهما أحد حتى قال قائد الشرطة بصوت منخفض: الأمر جد خطر يا شيخ.

التفت إليه الشيخ في قلق وهو يقول: ما الخطب يا قائد الشرطة؟

قائد الشرطة: سوف أخبرك يا شيخ رغم أن الوزير قد نهاني، يبدو أن الرجلين قد حرضا على قتلك، فهناك مؤامرة لاغتيالك.

قطب الشيخ جبينه وهو يقول: لعلك تقصد أبا عمر الصالحي وعبد العزيز بن سلام؟

أجابه جعفر: نعم يا سيدي، فأنت تعرف موقفهما من أفكارك أيها الفيلسوف، ولا ريب أنهما يحسدانك.

الشيخ: هذا ظني أيضًا يا جعفر، إنهما من علماء الصحف كغيرهم من الجهال الذين يسمون بالعلماء وهم أبعد ما يكون عن العلم.

وصل الموكب إلى الديوان، ودخل قائد الحرس على الوزير قائلًا: مولاي الشيخ ينتظر بالباب.

اعتدل الوزير وهو يقول: أدخله على الفور يا جعفر.

وما إن دخل عليه الشيخ حتى قام من مجلسه واستقبله بالترحاب: مرحبا بك في ديواني يا شيخنا الجليل، لكم اشتقت إلى رؤياكم.

الشيخ: مرحبًا بك يا مولانا الوزير، بل أنا من يشتاق إليكم، وأسعد بالمثول بين أيديكم.

أجلسه الوزير بجانبه في إجلال وهو يقول: فليعذرني الشيخ لإزعاجه بهذا الوقت المتأخر من الليل، ولكن الأمر لا يحتمل التأخير، لأنه يتعلق بسلامتكم.

الشيخ: وما ذاك يا مولانا الوزير؟

الوزير: لقد بلغني يا شيخ أن مجموعة من الحمقى يستهدفونك بالقتل.

رسم الشيخ علامات الدهشة على وجهه قائلًا: يقتلونني أنا؟ لماذا؟ ومن هم؟

الوزير: أنت تعلم يا مولانا أن لكم أقرانا حاقدين أطلقوا فتاواهم بـ..

لم يستطع الوزير أن يكمل عبارته فكفاه الشيخ النطق بها قائلًا: نعم أيها الوزير لقد حكموا علي بالكفر والزندقة.

الوزير: ولقد رأيت يا مولانا والرأي لكم، أن تقيم معي إلى أن نتمكن من القبض على تلك المجموعة التي نجهل عناصرها، ولكن اطمئن سوف يقعون في قبضتنا.

الشيخ: أقدر لك اهتمامك يا مولانا الوزير، ولكني ألتمس منكم إعفائي من المقام معكم؟

الوزير: لم يا شيخ؟ سوف تكون في دارك، ولن تفتقد شيئًا تريده، كما أن هذا المكان لن يتوقعه أحد، وإن فعل فلا يجرؤ على الاقتراب منك في هذا المكان.

الشيخ: أصدقك القول يا مولاي، هذا التنعم ينافي المراتب العلية، ولا إرب لي فيه، ولكن إذا لم يكن هناك بد من ترك الإقامة بمنزلي، فليكن مكانا آخر أرى أنه خارج توقعات المتآمرين، ومن جهة أخرى سأتمكن فيه من الخلوة بنفسي.

الوزير: وما هو يا شيخنا؟

مال الشيخ يهمس في أذن الوزير بشيء ما، فاتسعت عينا الأخير دهشة وهو يهز رأسه مبتسمًا: فكرة رائعة لا عجب أن تجود بها قريحة صاحب البصيرة.

الشيخ: على بركة الله، ولكن أمهلني فترة فثمة أمور يلزم القيام بها قبل أن أذهب إلى المكان الجديد.

الوزير: كما ترغب يا مولانا، وحتى ذلك الحين سوف يقوم رجالي بحراستك على أكمل وجه.

نهض الشيخ مبتسمًا شاكرًا الوزير كرمه واهتمامه.

هم قائد الشرطة بالانصراف لمرافقة الشيخ، إلا أن الوزير قد استوقفه وانفرد به في زاوية البلاط، فقال الوزير: استمع إلي جيدا يا جعفر، أريد حراسة قوية على الشيخ لكنها لابد وأن تكون سرية، لا أريد أن نلفت الأنظار ويتهمني البعض بالانحياز إلى ابن عربي.

جعفر: فليطمئن مولاي، الحرس سوف يرتدون ثيابًا عادية، ولن يفرق أحد بينهم وبين أتباع الشيخ ومريديه.

ابتسـم الوزير: أحسـنت يا جعفـر، هيا رافق الشـيخ إلى حيـث منزلـه، وما إن انصرف قائد الشرطـة بابن عربي، حتى جلـس الوزير على كرسـيه وهـو يعبث في لحيته مبتسـمًا، وقد أعجبه ما رآه من نفسه من حسن التدبير، فانطلقت ضحكاته مدوية بين جدران البلاط.



شيء من الماضي

سار المنصور في ظلمة الليل تتبعه المرأة على جوادها، وقد بدا متجهمًا شارد الذهن، تتقلب الذكريات في عقله، وتقفز إليه صورة تلو أخرى، الطفولة السعيدة ولهو الصبا، أفراح الأسرة الصغيرة، قرب الماء التي يحملها على ظهره إلى بيوت الناس، أحلام الزواج التي بددها الظلم، إلى أن وصل إلى مشهد بعينه قد جعله ينتفض من زحام الخواطر فزعا.

«هل لي أن أسألك عن شيء؟».

نطقت بها المرأة في حذر، توقعت معه أن ينفجر المنصور في وجهها من جديد، إلا أنه فاجأها وهو يقول بصوت خافت ونبرة هادئة: نعم

تهللت أسارير المرأة وهي تسير وراءه، فقالت وهي تستعيد في نفس الوقت نبرتها الحذرة: أرى فيك صفات لم يعهدها أحد في...

لم تستطع أن تكملها، فقال المنصور في خفوت: قاطع طريق، أكملي.

شـجعتها كلماتـه فتابعـت: هـل أنت راض عـن عملك هذا؟

المنصور: بالطبع لا.

المـرأة: فلماذا لا تبدأ حياة جديدة وتتكسـب من حلال؟ أرى فيـك خـيرًا ينبغـي أن يـرى النـور، إنـه لمـن المحـزن أن يكون رجل بهذه المروءة والشـهامة ولا يجد نفسـه في صفوف الشرفاء.

انتبهت للكلمة الأخيرة وقد أدركت أنها قد تجاوزت الحد نوعًـا مـا، إلا أن المنصور قد بدا وكأنه لم يسـمع تلك الكلمة، فصمت قليلًا ثم قال لها بنبرة يكسـوها حزن جاهد لإخفائه: لقد كنت هذا الرجل من قبل، عشـت مع والديّ حياة هنيئة، أكدّ مع أبي طوال النهار، نوزع الماء ومعه البسـمة على سـكان المدينة.

المرأة: أكنت تعمل سقاء؟

المنصور: نعم يا سيدتي.

أصابتها الدهشـة مـن تلـك الكلمة الأخيرة «سـيدتي»، وبـدأت تشـعر بأن الرجـل في حديثه عن الذكرى قد كشـف

عن شخص آخر وديع رقيق، يختلف عن ذلك اللص القاتل غليظ الطباع، فتابعت الاستماع إليه باهتمام وهو يقول:

وبرغم فقرنا كنا نحظى بالمنزلة لدى الناس، كانت لدي أحلامي كسائر الشباب، وتقدمت لخطبة فتاة طيبة صالحة منبتها طيب، قبل بي أبوها رغم أنه أكثر منا ثراء، لما كان يعرفني به من جمال الخلق.

اتسعت عيناها في دهشة إلا أنها أطبقت فمها عن التعليق فاستطرد هو: لم أر قبلها السعادة ترتسم على ملامح والديّ كمثل ما رأيتها ونحن ننتظر الفراغ من إعداد الزواج.

لمحت المرأة الابتسامة دون أن تراها من خلال كلماته، حيث بدا وكأنه تخطى حواجز الزمن وعاش الماضي من جديد، فاستطرد مبتسمًا:

رأيت أبي يومًا مستلق على ظهره وهو يعدد أسماء، ولما سألته عنها، أجابني: دعني يا منصور، إنني أتخير اسما لحفيدي المنتظر من الآن.

وأما والدتي فكانت دموعها التي أمسحها من آن لآخر تعبر عن فرحتها.

المرأة بلهفة: وماذا حدث بعدها؟ حالك يخبر بأن هذا لم يكتمل

«الظلم، والقهر، واستقواء الإنسان بجاهه وسلطانه على أخيه الإنسان».

قالها وأنفاسه قد بدأت تتسارع، وهو يضغط على أضراسه في غضب، جعلها تلزم الصمت من الوجل، إلا أنه تابع بنفس النبرة الغاضبة: سلبوا مني بظلمهم كل شيء، فرحتي بالعروس، والديَّ الذين لم أعرف غيرهما في الحياة، شبابي، محبة الناس، كل شيء، كل شيء، جعلوني أريق الدماء وأنا الذي كانت نفسي لا تطيق ذبح دجاجة، صنعوا مني طريدًا شريدًا، لا مأوى لي سوى الجبال والكهوف مع اللصوص والذئاب والحيات.

صمت المنصور بعد تلك الكلمات وهو يسعى لانتظام أنفاسه، فبادلته المرأة ذلك الصمت ريثما يهدأ.

قالت بعد برهة: لن أسألك عن تفاصيل أحداث يبدو أن ذكراها تؤلمك بشدة، ولكني أقول لك شيئًا واحدًا: طالما كنت على قيد الحياة فالأمل موجود في أن تحقق أحلامك.

انطلقت منه ضحكة ساخرة وهو يجيبها: أمل؟ أي أمل يا سيدتي؟ انظري إلى حالي اليوم ثم تكلمي عن الأمل، إنك تتحدثين إلى رجل مطلوب حيًّا أو ميتًا، فأي أمل هذا.

حوّل دفة الحديث فجأة وهو يسألها: ولكن من أي البلاد أنت؟ وإلى أين تذهبين؟

صمت لحظة ثم تابع: ولست مجبرة على الجواب.

قالت المرأة: أنا صفية بنت الشيخ النعمان من أعيان غزة قارئ ومقرئ للقرآن، الكثيرون هناك يعرفونه.

المنصور: ولكن لماذا لم يرافقك الشيخ في سفرك؟

زفرت المرأة في هدوء وهي تقول: والدي رجل مسن لا يقوى على السفر، فرافقت أناسًا صالحين في سفري إلى البصرة.

هم بسؤالها عن سبب سفرها إلا أنها تابعت: تزوجني منذ حوالي عشر سنوات رجل صالح من أهل البصرة، ورزقت منه بطفلين: مصعب وسلمى، لكنه قد تركهما لي ورحل.

المنصور: سفر؟

صفية: لقد مات.

المنصور: وأين ولداك؟

تابعت صفية وكأنها لم تصغ إلى السؤال: أمضيت هناك عامين بعد وفاة زوجي، فراسلني والداي كي أقيم لديهما بطفليَّ، وبالكاد أقنعت والد زوجي، فما هي إلا سنة مضت حتى سمعت بموته.

استطردت: راسلني أشقاء زوجي الراحل في أن أباهم قد أوصى لي ولأولادي بخمس ثروته، فذهبت إلى هناك، وبعت ما لنا وأتيت بقيمتها، وهي كل ما رأيته في الصندوق، وها أنا ذا أعود.

قاطعها المنصور بقوله: ها هي القافلة قد لاحت يا سيدتي، يمكنك اللحوق بها.

صفية: جزاك الله عني خيرًا، وردك إليه ردًّا جميلًا.

التفت المنصور فجأة بعد هذه الجملة الأخيرة، وهو يقول: شكرا لك أيتها المرأة الصالحة

همت المرأة باللحاق بالقافلة فالتفتت إلى المنصور وهي تداري وجهها بخمارها: تذكر أن الجبال ليست لك بمأوى، الفرصة دائما سانحة، وفقك الله.

قالتها وانطلقت بجوادها وقد تركت المنصور مطأطئ الرأس في شرود لم يقطعه إلا عواء الذئاب فمضى وهو يشعر أن الماضي قد بعث من جديد.



الفتى الجريء

خرج الشيخ أبو عمر الصالحي من المسجد بعدما صلى بالناس الصبح، وقد رافقه شاب قد تجاوز العشرين بقليل يبدو أنه من طلابه المقربين، وقد سلكا الطريق إلى بيتيهما يتجاذبان أطراف الحديث.

الصالحي: نعم يا ولدي، أوافقك الرأي في أن أمر الرجل تفاقم وازداد مريدوه وأتباعه، وانخدعوا بمعسول كلماته، ولهذا ينبغي يا أحمد أن يزداد جهدنا في توعية الناس.

أحمد: إني ليرق قلبي لهؤلاء المخدوعين به يا شيخنا، وأخشى أن يكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

الصالحي: هدانا الله وإياهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا ولدي.

أحمد: ها قد وصلنا إلى منزلك يا شيخنا، أستودعك الله وإلى لقاء في المساء إن شاء الله.

الصالحي: في رعاية الله يا أحمد.

انصرف الشاب قاطعا مسافة بعيدة حتى يصل إلى بيته، إلا أنه قد استوقفه مشهد ابن عربي وهو يجلس في فناء داره وحوله مريدوه يستمعون إلى شيخهم وكأن على رؤوسهم الطير، وقد اندس الحرس بثياب العامة بين الحلقة يرمقون الطريق من آن لآخر من طرف خفي.

اقترب أحمد من المجلس، وقد هاله ما رأى من أمر الشيخ وأتباعه، فلقد جلسوا يستمعون إلى أشعاره وقد هطلت دموعهم، وارتسمت علامات الخشوع على الوجوه، يترنحون كأنهم سكارى العشق والوجد.

وأما شيخهم ابن عربي فقد جعل يسكب عليهم أبيات ديوانه وقد أغمض عينيه تنساب من بين جفنيه الدموع:

انظر إلى الحقّ من مدلول أسماء

وكونه عين كلي عين اجزائي

إن كان ينصفني من كان يعرف ما

يبدو إليه من إعراضي وإنحائي

أسماءُ ربي لا يحصى لها عددٌ

ولا يحاط بها كمثل اسمائي

إنْ قلتُ قلت به أو قال قال بنا

تداخل الأمر كالمرئيّ والرائي

العين واحدة والحكم مختلف

فانظر به منك في تلويح إيمائي

النور ليس له لونٌ يميزه

وبالزجاجِ له الألوان كالماء

الماء ليس له شكل يقيده

إلا الوعاءُ في تقييده دائي

الداء داءٌ دفينٌ لا علاجَ له

كيف العلاجُ ودائي عينُ أدوائي

أروم بُرءًا لداءٍ لا يزايلني

هيهاتَ كيف يداوى الداءُ بالداءِ

اقولُ باللامِ لا بالباء إنَّ لنا

شخصًا ينازعني في القولِ بالباء

«يا رجل اتق الله، ضللت وأضللت ورب الكعبة».

انتفض جميع الحاضرين وكأنهم لُدغوا، وقد نظر كل منهم بتجهم إلى الفتى قائل هذه العبارة، إلا أنه عاجلهم بقوله: ألا تفيقون من هذه السكرة؟ إنه يسقيكم السم في

معسـول أشـعاره، ثم التفت إلى ابن عربي وهـو يقول: وأنت أيها الشيخ، ألا تعلم بأن الله سائلك عن هؤلاء الناس؟ كيف جعلـت الذي على العرش استوى، عين الوجـود؟ أي قرآن وأي سنة قد استقيت منهما ما استقيت.

هـمّ جمـع مـن الحاضريـن بـأن يفتكـوا بالرجـل، إلا أن شـيخهم قد اسـتوقفهم وهـو يكفكـف دموعه بثيابـه قائلًا: دعوه يا رجال، أقبل يا ولدي.

اقترب أحمد من الشـيخ فاسـتطرد الأخير: مـن أنت أيها الشاب الطيب؟

بادر أحد الأتباع بالكلام: أعرف هذا الفتى، إنه من أتباع أبي عمر الصالحي.

ابـن عربي: يا ولدي « هويته هي عـين الجوارح التي هي عين العبـد. فالهوية واحدة والجوارح مختلفـة. ولكل جارحة علـم مـن علـوم الأذواق يخصهـا مـن عـين واحـدة تختلـف باختـلاف الجوارح، كالماء حقيقـة واحدة في الطعم باختلاف البقـاع، فمنه عذب فـرات ومنه ملح أجاج، وهو ماء في جميع الأحوال لا يتغير عن حقيقته وإن اختلفت طعومه»[1].

(١) فصوص الحكم، لابن عربي، ص(١٠٧).

الفتى صارخًا: كف عن هذه الترهات ولا تلبس على الناس بما غمض من كلماتك، اتق الله وعد إلى حظيرة السنة.

انفجر الحضور في وجه أحمد:

أيها الجاهل كيف تجرؤ؟

اخرج من حضرة الشيخ.

لولا أن الشيخ أمرنا لجعلناك عبرة لغيرك.....

ابن عربي: انصرف راشدا يا ولدي، عسى الله أن يبصرك بالحق.

انصرف أحمد غاضبًا وهو يقول بصوت عال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم يدر وهو يسير في طريقه أن أحد الجنود المتخفين قد لحق به يراقبه من بعيد حتى منزله.

حدث في الصباح

بـزغ نـور الصبـاح، ليعلن عـن بداية يـوم جديد،تتجدد معه الأرزاق، وخرج كل سـاع من بيتـه إلى حيث عمله، كان من بينهم ذلك الشـيخ الهرم والـد منصور، والذي ترك عمل السـقاية الشـاق لكبر سـنه، وصار يتاجر في الحبوب بأسواق حلب.

ولم تبـصر عيناه ذلك الرجل الملثـم القابع خلف صخرة بارزة على مسـافة من بيته، وما إن ابتلع الطريق الشـيخ الهرم، حتى هرع المنصـور إلى بيت والديه المتصدع وهو يلتفت يمنة ويسرة، فلما وصل إلى الباب طرقه برفق.

«من بالباب؟».

نطقت بها أمه هند فأجابها المنصور: أنا رسول.

فتحت العجوز لكي ترى ذلك الملثم، متسائلة: رسول؟ من قِبل من؟

المنصور بصوت خافت: أنا ولدك المنصور يا أماه.

همت العجوز بالصياح فرحًا، إلا أنها تمالكت نفسها وهي تلتفت يمينًا وشمالًا، فأخذت بيد ولدها إلى داخل الدار، وما

إن أغلقت الباب حتى ارتمت باكية في أحضان المنصور وهي تقول:

ولدي، لا أصدق ما تراه عيناي، ولدي، حبيبي، طال غيابك يا مهجة قلبي، سبعة أشهر يا منصور؟ تحرمني رؤيتك سبعة أشهر؟

أمسك المنصور يد أمه وهو يقبلها، وينزل بها على الأرض يفترشان الأرض، وهو يحبس دمعات طال سجنها، فلقد مرت عليه إحدى عشر عاما منذ أن فارق أهله، عود قلبه القسوة، وفطم عينيه عن الدموع.

«عذرا يا أماه، أنت تعلمين أنه لا أرض لي تقلني ولا بيت يؤويني، رجال الشرطة يقتفون آثاري، ولذا أرتحل من مكان إلى مكان»

الأم باكية: لم يعد قلبي يعرف للفرح معنى يا منصور، يبدو أنني لن أنعم بقربك بقية عمري.

المنصور وهو يمسح دموع أمه: هاأنذا يا أم المنصور، أجلس بين يديك حبيبتي.

الأم وهي تعاود العناق من جديد: كيف يا ولدي، كيف؟ وأنت بعيد عني يتفطر قلبي لبعدك، ويتملكني الخوف عليك، لا أعلم أحي ترزق أم صرت من سكان القبور.

همّ المنصور بالرد عليها إلا أنها استطردت: وعندما أراك بعد طول اشتياق، وأضمك لصدري، وأتحسس وجهك بأناملي، يقتلني الخوف عليك، وما يدريني لعل أحدهم اقتفى أثرك، أو تخرج من الباب لترى رجال الشرطة تلقاء وجهك؟

نهض المنصور وهو يترك يد أمه برفق، وهو يقلب بصره في أنحاء بيته الذي هجره منذ سنوات طوال، ويمر أمام ناظريه قطار الذكريات، ليخلف في نفسه مزيدًا من الشعور بالبؤس والشقاء.

يرفع إناء الماء ليتجرع منه القليل ثم يجيب أمه وقد ولاها ظهره: لم يعد الموت يخطر لي ببال يا أم، لم أعد أكترث له.

تابع في تهكم الواهن: واجهته كثيرًا، وتمنيته أكثر، لكنه في كل مرة لا يطلبني، حقًّا لم أعد أفكر فيه، وفوق كل ذلك.

صمت برهة ثم أجابها: أنا ميت بالفعل.

قالها واستدار إلى أمه ليواجه تلك الدموع المتدفقة، والتي صارت تنساب على وجنتي العجوز دون توقف، ليحدثها وقلبه يلتهب: دموعك قاتلتي يا أم المنصور، رحماك.

جعلت هند تمسح الدموع بكفيها في عجل وهي تصطنع ابتسامة في وجه المنصور وهي تقول: فلنغادر يا منصور تلك البلدة، نذهب إلى بلد بعيد لا يعرفنا فيه أحد، تعيش مع والديك ما بقي لهما من العمر يا ولدي.

ضحك المنصور وهو يتجه بصدره إلى أحد جدران المنزل قائلًا: أعيش مع من؟

الأم: أنا وأبيك يا منصور.

المنصور: أفيقي يا أمي من أحلامك، لو رآني أبي لما ادخر جهدا في اقتيادي إلى الشرطة، لم يعد معترفا بأنني ولده.

صمت قليلا ثم استطرد وهو يغالب أحزانه: أتظنين يا أماه أنني لا أشتاق لصدر أبي الحنون؟ لكم تمنيت أن أقبل يديه كما كنت أفعل من قبل، ألتمس لديه الدعوات الحارة التي أجد بردها على قلبي، أبث إليه أحزاني وآلامي.

هـا أنا اليـوم صرت أدخل بيتـه سرًا، وأنتظـر حتى أرى ظهـره وهو يولي مدبرًا، فأدخل إلى أمي التي لا تريد نسـياني، ليتكرر نفس المشهد ونفس الكلمات في كل مرة.

التفـت إليهـا مردفًـا: لم يعـد لي اختيـار يا أمـي، طريقي موحـل بالدمـاء، مطلوب للموت أينما اتجهـت، لقد ابتلعتني حيـاة الجريمة يـا أمي، لم أعد أسـتطيع الفـكاك منها، فارقت السلام والأمان منذ أمد بعيد.

تركـت الأم دموعهـا تشـق طريقها من جديـد وهي تهز رأسـها في أسـى يمنـة ويـسرة وهي تقـول بحـروف متقطعة اختلطـت بالأنـين: لا أدري بم أجيبك يا قـرة عيني، ولكني لن أقنط من رحمة ربي.

قالتهـا وقـد جثـت عـلى ركبتيها رافعـة يديها إلى السـماء تناجـي ربها وهـي تختنق من البكاء: يا من وسـعت رحمته كل شيء، هـب لي ولدي، هب لي ولـدي، هب لي ولدي يا أرحم الراحمين.

رق لهـا المنصـور بشـدة، فربـت عـلى كتفهـا وهـو ينزل عـلى الأرض بجوارها يقبل رأسـها ويديها راسـما على وجهه

ابتسامة مصطنعة وهو يقول محاولًا التخفيف عنها: حبيبتي، برغم كل شيء، أقول لك ما علمتنيه صغيرًا: الرب موجود، فالأمل إذا موجود.

وضع في يدها صرة أموال، وهو يرجوها ألا تردها إليه، فابتسمت وهي تقول بوداد: أنت تعلم يا منصور أن أباك يمنعني أن آخذ منك شيئًا.

سحب يده وهو مطرق الرأس قائلًا: نعم، أعلم يا أمي، فقط لا أطيق أن يعيش أبواي حياة البؤس والفقر بينما أخطو أنا على الأموال.

«أموال من حرام».

قالتها الأم في حزم مفاجئ، سرعان ما استعادت نظرتها الودود بعدما أطرق برأسه إلى الأرض، فتابعت: الحمد لله يا ولدي، نحن بخير حال، اعتن فقط بنفسك.

المنصور: ألقاك على خير يا أمي، لابد وأن أتحرك فالشمس قد أشرقت، والطرقات سوف تمتلئ بالمارة، اعتن بنفسك وأبي يا حبيبتي.

قبل يديها واستدار إلى الباب فاستوقفته أمه: منصور.

وقـف مكانه فهرولـت والدتـه لتعانقه بقوة وأسـى، ثم فتحت البـاب ونظرت إلى جانبي الطريـق حتى أيقنت خلوه مـن الناس، ليخرج المنصور من دارهـا وقد خرج قلبها معه، يهيـم شـهور عـددًا قبـل أن يعـود إليها مـن جديد مـع عودة ولدها.

سار المنصور مسافة بعيدة عن البيت حيث يربط حصانه، وهم بأن يعتلي ظهره لولا أن استوقفه صراخ ولغط.

اتسـعت حدقتـا المنصور وتطايـر الشرر منهـا وهو يرى رجلًا تبدو عليه غلظة الطباع وهو ينهال على رجل رث الهيئة بالسـوط وقد طرحه أرضًا وهو يقول: سـوف أعلمك كيف تطيع مولاك أيها العبد الآبق.

العبـد: سـامحني يـا مـولاي، لقـد خانتنـي قوتي بسـبب المرض، سوف أفعل كل ما تأمرني به يا سيدي.

السيد: ستفعل ولا ريب أيها الخبيث، وهذه السياط حتى لا تتذكر لاحقًا عاقبة تقصيرك.

رفع غليظ الطباع سوطه إلى أعلى لكي ينزل به على جسد العبـد الذي تمزقت ثيابه، إلا أنه لم يفعل، لا لشيء إلا لأن يدًا فولاذية قد أمسكت بطرف السوط.

«دعه وشأنه».

قالها المنصور وعيناه قد اتقدتا كالجمر، فاستدار الرجل وهو يقول: من أنت؟ وكيف تجرؤ؟

ترك المنصور طرف السوط وهو يقول: دع العبد سوف أشتريه منك.

السيد: ومن قال لك أيها الأحمق أنني أريد بيعه، وكيف تجرؤ على أن توقفني، ألا تعلم من أنا؟ رفع سوطه من جديد ولكن في وجه المنصور هذه المرة، فما كان من الفتى إلا أن تفادى الضربة برشاقة فائقة، ليطوق رقبة الرجل بذراعيه حتى برزت عيناه، ثم استلب منه السوط وظل يضربه على جسده بعنف جعله يطلق صرخات عظيمة وسط ذهول الحاضرين.

المنصور للعبد: اعتل ظهر ذلك الجواد بسرعة إن كنت ترغب بالحرية.

نفذ العبد بتلقائية كلام المنصور، والذي فوجئ برجلين من أتباع السيد قد أشهرا سيفيهما، فأخرج خنجرًا لم يكن بحوزته من سلاح غيره حينها، وظل يراوغهما بمهارة حتى

تدحرج أرضًا ليقطع كاحل أحدهما، ونهض بسرعة تحسده عليها الفهود ووقف أمام الثاني وجهًا لوجه، حتى لمح رجال الشرطة آتين من بعيد فترك النزال وهرع إلى حصانه جاعلًا العبد رديفه، لينطلق بالجواد مسابقًا الريح.

كانت مطاردة قصيرة، حيث لاذ المنصور بالفرار ليختفي عن الأنظار بعد سلوك طريق وعرة أعجز رجال الشرطة عن اللحوق به.



عاشق النظام

طرق شاب في أوائل عقده الثالث باب الشيخ محيي الدين، فتفتح الجارية لتنظر إلى الشاب وتدخل في صمت بما يدل على معرفتها بالزائر.

وما هي إلا لحظات حتى عادت إلى الشاب قائلة: سيدي محيي الدين يأذن لك في الدخول عليه.

أسرع الشاب وراء الجارية في الدخول إلى شيخه، وما إن رآه حتى انكب على يديه يقبلهما، فتبسم له ابن عربي وهو يقول: صدر الدين محمد القنوي، تلميذي وولدي الحبيب، كيف حالك يا بني؟

صدر الدين: بخير حال يا سلطان العارفين، لم يكن ينقصني سوى أن أطلق النظر إلى محياكم.

ابن عربي: وكيف حالك زوجك يا بني؟

صدر الدين: الحمد لله يا سيدي، صمت برهة ثم استطرد: سيدي محيي الدين، هل لي بأن أتحدث معكم في أمر هام، لا بصفتي تلميذك، ولكن باعتباري ابنك الذي ربيته صغيرًا بعد يتم، وتفضلت على أمه بالزواج منها.

محيي الدين: على الرحب والسعة يا بني، قل ما بدا لك.

صدر الدين: سيدي، قبل أن نأتي إلى دمشق قبل سنوات لم أكن أرى أحدًا يتكلم عن ديوانك الذي صنفته منذ أمد.

محيي الدين: لعلك تقصد ديوان ترجمان الأشواق.

صدر الدين: نعم أعنيه يا سيدي، ولكن بعدما قدمنا إلى دمشق رأيت كثيرًا من الناس يتداولون الحديث فيما بينهم عن ديوانك ويتهمونك بأنك....

صمت صدر الدين قليلا فقال له شيخه متبسما: أكمل يا ولدي.

صدر الدين في حياء: أنك عشقت فتاة حجازية، وألفت ذلك الديوان من أجلها وفصلت القول في وصفها ومحاسنها بصورة فجة، من هي تلك المرأة يا والدي؟

شرد محيي الدين قليلًا وكأنما يبحر في ذكرياته، ثم نطق بتأثر ناظرًا أمامه: «لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء، وعصابة من الأكابر والأدباء والصلحاء بين رجال ونساء، ولم أر فيهم مع فضلهم مشغولًا بنفسه، مشغوفًا فيما بين يومه وأمسه، مثل الشيخ العالم الإمام،

بمقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، نزيل مكة البلد الأمين مكين الدين أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

صدر الدين: كنت في حوالي الأربعين من عمرك يا سيدي؟

ابن عربي: نعم تقريبًا يا محمد.

صدر الدين: أكمل رجاء سيدي

استطرد ابن عربي: «وكان لهذا الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر، وتحير المناظر، تسمى بالنظام، تلقب بعين الشمس وإليها من العابدات العالمات السابحات الزاهدات شيخة الحرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلامين، ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت إن نطقت خرس قس بن ساعدة، وإن كرمت خنس معن بن زائدة، وإن وفت قصر السموأل خطاه، وأغرى ورأى بظهر الغرر وامتطاه»[1].

---

(١) ذخائر الأعلاق لابن عربي، ص(١-٤).

صـدر الديـن في خجـل: ألهـذا الحـد همـت بهـا يا سـيد العارفين؟

ابـن عربي: «لولا النفـوس الضعيفة السريعة الأمراض، السـيئة الأغـراض، لأخـذت في شرح مـا أودع الله تعـالى في خلقها من الحسـن، وفي خلقها الذي هو روضة المزن، شمس بـين العلماء، بسـتان بـين الأدباء، حقـه مختومة، واسـطة عقد منظومـة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها، سـابغة الكرم، عالية الهمم، سيدة والديها، شريفة ناديها، مسـكها جياد وبيتها من العين السـواد ومـن الصدر الفـؤاد أشرقت بها تهامـة، وفتح الـروض لمجاورتها أكمامه، فنعمت أعراف المعارف، بما تحمله مـن الرقائـق واللطائـف، علمهـا عملها، عليها مسـحة ملك وهمة ملك»[١].

صـدر الدين: ولكن يا سـيدي، ديوان ترجمان الأشـواق ينتقـده الناس لما فيه مـن غزل صريح وذكر مفاتن جسـدها، بـما لا يليق بسـلطان العارفـين والزاهدين، فالنـاس يقولون: الشيخ الأكبر عشق بنتًا صغيرة، ألا يخجل من نفسه؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

احمرَّ وجه محيي الدين خجلًا، وشاح بوجهه عن الشاب وهو يقول: وما شأني بأناس لا يسبرون أغوار كلماتي يا ولدي؟

صدر الدين: سيدي أنت إمامي وقدوتي وأثق بسمو قدرك أكثر مما أثق بأن الشمس تخرج من مشرقها، ولكني أود أن أملك الحجة في الدفاع عن سيدي وشيخي، ألا تعلم أن كبير علمائهم يحدث الناس في الجامع الكبير عن ديوانك؟

ابن عربي: من تعني؟

صدر الدين: ومن غيره؟ عبد العزيز بن سلام.

مط ابن عربي شفتيه وقبض على لحيته قائلًا: هذا الرجل يتبعه خلق كثيرون متأثرون به، ولكن لا عليك سيظهر جهلهم للناس ولا ريب.

هم صدر الدين بالحديث لولا أن شيخه دفع إليه كتابًا وهو يقول: أريدك أن تقرأ هذ الكلام يا محمد، هذا كتابي ذخائر الأعلاق الذي شرحت فيه ديوان ترجمان الأشواق، سوف يساعدك هذا في الرد على المناوئين.

أمسك صدر الدين الكتاب وقد بدا عليه البشر وهو يقول: حسنًا يا سيدي سأفعل.

محيي الدين: محمد، أنت تلميذي النجيب، وأريدك أن تجد السير على طريقي من بعد مماتي، وتحفظ للناس ما تركته من معرفة، أريدك أن تقوم على كتبي ومذهبي.

صدر الدين: أطال الله بقاءك يا سيدي، وما تطلبه مني هو قرة عين لي.

تنهد ابن عربي بأسى وهو يقول: كنت أود أن يقوم ولداي: عماد الدين وسعد الدين بالأمر من بعدي، لكنهما غير مؤهلين لذلك، ثم تبسم الشيخ تجاه صدر الدين وهو يربت على كتفه قائلًا: لكني لا أعتبرك ربيبي، بل ولدي الذي لم أنجبه، وأرى أنك خير من أعهد إليه بالأمر من بعدي.

صدر الدين: وهذا شرف عظيم لي يا سيدي.

محيي الدين: انصرف راشدًا يا محمد ولا تنس قراءة الكتاب.

قام الشاب من فوره وهو يقبل يد شيخه ثم ينصرف تاركا الشيخ يفكر في الهجوم الضاري الذي يشنه عليه إمام الجامع الكبير عبد العزيز بن سلام، والذي يتهدد نشر أفكاره ومنهاجه.

الصياد

صرخ ذلك العبد الأسود بأعلى صوته وهو يلصق ظهره بصخرة بارزة داخل الغار، واتسعت حدقتاه في رعب وهو يحدق في تلك الحية التي وقفت على مقربة منه وهي تستعد للهجوم عليه، إلا أن سيفا قد أطاح برأسها في سرعة وبراعة، تنفس ذلك العبد على إثرها الصعداء.

ضحك جابر وهو يغمد سيفه قائلًا: لقد جانبك الصواب أيها العبد في أن تقيم بيننا، هذه حياتنا كما ترى، كهوف وذئاب وذوات سموم ومخاطر شتى.

تدخل سعد في الحديث مازحًا: دعه يا جابر، فإن لنا في العبد «أيوب» منافع.

أيوب وقد ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه: سيدي ما كان لي أن أترك ذلك الرجل الشهم الذي عرض نفسه للخطر من أجل عبد ضعيف لا يعبأ الناس به.

عطاء ساخرًا: أيها الأبله، أو ما كان يكفيك أن أنقذك المنصور لتلوذ بالفرار إلى بلد بعيد؟

أيـوب وهو يقـول في خضوع اعتـاده في مخاطبة سـادته: سيدي، لقد عرض عليّ سيدي المنصور أموالًا بعد أن استطاع الفرار بي، لكن أين أذهب؟ لا أهل لي ولا عشـيرة، إنني حتى لا أعلم من شـيئًا عن أبوي وعائلتي، نشـأت منذ الصغر وأنا عبد أتقلب في خدمة السادة.

صمـت جميع رجـال المنصور وقد بدا عليهـم التأثر وهم يتابعون العبد وهو يسـتطرد: لأول مرة في حياتي أرى إنسـانًا يدافـع عنـي ويحمينـي، لقد أصابنـي الذهول لموقف سـيدي المنصـور وهو ينازل الرجال بسـببي، حتى أنني لم أفكر في أي شيء عندمـا أمـرني بركوب خيله، وعندما أعطـاني المال لكي أذهـب إلى بلـد بعيـد وأعيش حـرًّا أخذت أفكـر في لحظات متسـائلًا: إلى أين أذهب، وكيف أعيش بين الأقوياء، ولم أرى رأيًا غير أن أرافق سيدي المنصور.

ربـت إبراهيـم بيده على كتـف العبد وهو يقول متبسـمًا: مرحبًـا بـك يا أيـوب في الفريق، صرت واحـدًا منا، نحن كما تـرى عائلة واحدة، فكل فرد منـا لا يختلف حاله كثيرًا عنك، لا أهل ولا ولد.

قام رافع من فراشه وهو يسير ببطء متأثرًا بجرحه الغائر الذي لم يُشف منه بعد، فقال لزملائه: أين ذهب المنصور يا رجال؟

سهم: المنصور لديه عملية صيد يا رافع.

هتف أيوب باهتمام: أو يذهب سيدي المنصور للصيد؟ وهل يصطاد في الجبال أم يصطاد طيرًا؟

تعالت الضحكات من جميع الرجال عدا أيوب والذي نظر إليهم فاغرا فاه، يقلب وجهه البريء بين الرجال وقد كاد بعضهم يسقط أرضًا من فرط الضحك.

عبد الملك بعد أن تمالك نفسه: لا يا أيوب، لا هذا ولا ذاك، إنه يصطاد البشر.

عاود الجميع الضحك بعدما رأوا علامات الدهشة تتضاعف على وجه العبد أيوب، إلا أن عبد الملك قد استطرد بعد برهة: لقد ذهب لقتل أحد الوجهاء.

أيوب في دهشة عارمة: لماذا؟ هل هو عدو لسيدي المنصور؟

رافع: إنه لم يعرفه إلا منذ بضعة أيام، لكنه عمل سيدك المنصور.

أيوب: عمله؟

رافع: نعم، إنه قاتل مأجور.

أيـوب: ولكن كيف؟ صاحب هـذا القلب الرحيم يقتل بالأجرة؟ كيف؟

سـعد: اطمئن يا أيوب، فسـيدك لا يوافق على المهمة إلا بعد أن يتأكد من أن ضحيته القادمة طاغية ظالم.

أيوب: ولكن مالي أراكم هنا جميعكم، وقد تركتم سيدي يذهب وحده؟ ألستم رجاله وتشاركونه جميع أمره؟

جابر: ما أشـد فضولك أيها العبد، حسـنًا سأخبرك، إننا نشاركه قطع الطريق أما مهام القتل فيقوم بها وحده، ويقتصر دورنـا نحـن على جمـع معلومات دقيقـة حول الهـدف، حتى يضمن المنصور أنه سوف يقتل شخصًا خبيثًا.

أيوب: نعم يا سيدي، ولكن لماذا يذهب وحده؟

مـط جابـر شـفتيه وهو يقول: ثأر شـخصي مـع كل ظالم ومتجبر.

إبراهيـم وهو يقوم بـشي شـاة كادت أن تتهيأ لأن تكون طعـام العشـاء للرجـال: لم أعـد أحتمـل مزيدًا مـن الجوع يا فتيان، متى يأتي المنصور؟

وفي هـذه الأثنـاء كان المنصـور ينطلـق بجـواده وسـط صرخات رجـال أحد الوجهـاء وهم يتنادون: أمسـكوا هذا القاتل، لقد أجهز على مولاي عماد الدين.

انطلقت كوكبة مـن الرجال يطـاردون المنصور، والذي سـابق الريـح بجـواده وهـو يتجـه إلى شرق المدينـة في جنـح الليل.

ومـا إن وصـل إلى منطقة بعينها حيث تقع غابة كثيفة من الأشجار على يسار الطريق، حتى قفز المنصور من على جواده في خفة وسرعة بعدما خفض قليلًا من سرعته، وترك الحصان يكمل طريقه، ليتوارى هو بين الأشـجار مستترًا بظلام الليل الدامس.

واقتربت كوكبة الفرسان من المنطقة وهم يتابعون الجواد الراكـض ولم يدركـوا أن صاحبـه قد تخلى عنه، فاستمروا في عمليـة المطاردة، في الوقت الذي كان يرقبهم المنصور من بين الأشـجار حتى اطمأن أنهم قد أبعدوا المسـير، فوقف مبتسـمًا يهز رأسه قائلًا: بلهاء، تطاردون هدفًا صعبًا.

قالهـا ثم اتجه إلى جواد قد أوثقه سـلفًا إلى جذع شـجرة، وتناول صرة من على ظهره قد اسـتخرج منها ثيابًا سرعان ما اسـتبدلها بما عليه حتى يغير من هيئته، ليعود من ذات الطريق الذي سلكه في رحلة المطاردة بعد تنفيذ المهمة.

وما هي إلا سـاعة قطع فيها المنصور مسـافات بعيدة إلى خـارج المدينة حيث مـأوى فريقه، حتى دخـل على رجاله في صمت، وهـم يهنئونه بسلامة الوصول.

بـادر أيـوب بحمـل متاع سـيده وهيأ لـه مكانا يفترشـه ورجاله، وهو يقول: حمدًا لله على سلامتك يا سيدي.

هـز المنصور رأسـه بدون كلام وهو يقـول: هل راق لك المقام لدى تلك العصابة يا أيوب؟

أيـوب وهـو يضـع الطعـام بـين أيديهـم: لو كان سـجنًا لرغبت في العيش به ما دام معك يا سيدي.

إبراهيم: هيا يا منصور نحن نتضور جوعًا.

شرع المنصور ورجاله في تناول العشـاء بينما وقف أيوب على خدمتهم، فإذا بالمنصور يقول له: اجلس يا أيوب وتناول العشاء معنا.

أيوب في حياء: لا يا سيدي لا أستطيع أن أكل مع...

«قلت لك اجلس».

نطقها المنصور بغضب ارتعدت له فرائص العبد وهو يجلس مرتبكًا، فاقتطع المنصور قطعة كبيرة من لحم الشاة يدفعها بهدوء إلى أيوب، والذي أخذها وهو ينظر إلى سيده الذي استعاد هدوءه في لحظة واحدة وهو يقول: لقد صرت منا يا أيوب، أنت لست عبدا هنا، أنت رفيقنا.

تهللت أسارير أيوب، وقد انهال على يد المنصور يقبلها قائلًا: لأول مرة حياتي يا سيدي يحن علي بشر.

عبد الملك مازحًا: إذا كان يحنو عليك الجان يا أيوب.

ضحك الجميع، بينما ابتسم المنصور في وجه أيوب وقد رقه له قلبه قائلًا: أنت منا ونحن منك يا أيوب.



أسير الفجر

استيقظ الشاب أحمد قبيل الفجر ليؤدي بعض ركعات في وقت السحر، جلس بعدها يستغفر ربه في خشوع وسكينة، وما إن سمع الأذان يشق سكون الليل، حتى جلس بجانب أمه العجوز ليوقظها برفق: أماه، حان وقت الصلاة يا حبيبتي.

الأم وهي تفتح عينيها لتطالع وجه ابنها الوحيد: نعم يا ولدي، سأنهض وأتوضأ للصلاة.

أحمد: حبيبتي ها هو ذا الماء قد سخنته لك فالجو بارد الليلة.

ابتسمت العجوز وهي تتمتم بالدعوات الحارة لولدها الذي ظل يسكب لها الماء لتتوضأ، وما إن فرغت حتى جعل يجفف أعضاءها بعباءته، ليحصل على مزيد من الدعاء.

استأذن أحمد أمه للخروج إلى المسجد لأداء الصلاة، ولم يفته تقبيل يدها، وهو يقول: سوف أعد لك الإفطار يا أمي لدى عودتي من المسجد إن شاء الله.

هزت الأم رأسها مبتسمة، وهي تراقب ولدها وهو يخرج من البيت ويغلق الباب خلفه في هدوء.

وما إن قطع بعض خطوات في طريقه إلى المسجد حتى عدا عليه خمسة رجال أشداء وهم يقيدون حركته ويكممون فمه وهو يحاول الصراخ في ذهول، اقتادوه بعدها إلى مكان مجهول، بعدما وضعوا عصابة على عينيه.

سمع أحمد صوت باب يفتح ليفاجأ بمن يدفعه إلى داخل حجرة في عنف كاد أن يسقط معه أرضًا، فقام أحدهم بإزالة العصابة من على عينيه ونزع الكمامة من على فمه، تنفس بعدها الصعداء وهو يسأل: من أنتم؟ وأين أنا؟ ولماذا أتيتم بي إلى هنا؟

«أنت هنا لا يسمح لك بالحديث حتى يؤذن لك، أفهمت؟».

قالها رجل طويل الشارب غليظ الشفتين وهو يوجه لكمة إلى أحمد جعلته ينحني متأوها وهو يمسك بطنه وقد ارتسمت ملامح الألم الرهيب على وجهه.

لم يتفـوه أحمد بكلمة وهو ينظـر إلى الرجال وهم يغلقون باب الحجرة وراءهم، وهو لا يدري شيئًا عما يحدث له، وظل يحـاول التجوال ببصره في أنحاء الحجـرة التي اكتنفها الظلام الدامس بعدما أغلق عليه بابها.

همَّ أحمد بأن ينادي على الرجال ليسألهم عن قبلة الصلاة، إلا أنـه تذكر اللكمة التي لم ينقشـع ألمها عنـه بعد، فاجتهد في التوصـل إلى الاتجاه الصحيح قدر اسـتطاعته، مسـتحضرًا ما تعلمه على يد شيخه من مسائل الفقه.

ومـا إن صلى الصبح حتى جلس يتلو أذكار دبر الصلاة، أسند بعدها ظهره للحائط وهو يتذكر أمه العجوز المريضة التي لا تملك من زهرة الحياة سـوى أحمد، وغزته الأفكار المؤرقة: قلـق أمه ووحشـتها، مرضها، حاجتها للطعـام والعناية، ولا ريب أنها سـوف تخرج للبحث عنه وهي على حالتها تلك من الضعـف والمرض.

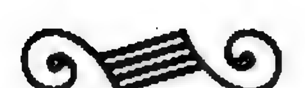
ظل ينفض هذه الوسـاوس عن رأسـه، وقد أسـلم أمره لله، ثم بدأ يفكر في مختطفيه:

هل هم لصوص؟ لكنهم لم يفتشوه ليحصلوا على ماله.

هل ينوون بيعه؟

أسئلة حائرة لم يهتد إلى الجواب عنها.

وما هي إلا لحظات حتى تسلل نور الصباح إلى الحجرة عبر طاقة صغيرة في أعلى الجدار، ليفتح الباب بعنف، ويجد أحمد نفسه أمام ثلاثة رجال مفتولي العضلات قد أمسك كل منهم بسوط غليظ وقد بدت على وجوهم أمارات الغلظة والقسوة، بما جعل أحمد يلصق ظهره للجدار بحركة عفوية وهو ينظر إليهم في هلع قد ازداد حدة، وهو يرى سوط أحد الرجال يرتفع لأعلى.



وداعًا يا ولدي

تمددت أم المنصور على فراشها وقد بدا عليها المرض والوهن، وفي المنزل جاريتان صغيرتان قد انغمستا في اللعب واللهو.

«زينب، فاطمة»، كفا عن اللعب، فجدتكما مريضة».

نطقت بها امرأة شابة تقوم بطهي الطعام لتلك العجوز المريضة وزوجها همام الذي لم يأت بعد من عمله بالسوق.

نادتها أم المنصور بصوت واهن: اتركيهما يا هاجر، إنهما حبيبتاي، بحسبي أن أرى البسمة تعلو وجهيهما، ثم بسطت يديها للجاريتين فسارعتا للمثول بين أحضانها.

هاجر مداعبة: أنت هكذا دائمًا يا خالتي، تفرطين في تدليلهما.

طبعت أم المنصور قبلتين على وجنة كل منهما، وهي تقول: إنني أنتظر قدومهما على أحر من الجمر يا هاجر، ثم تنفست بعمق وهي تتابع في أسى: لكم كنت أتمنى أن احمل لولدي المنصور بنات وبنين.

قالتها ثم التقت عيناها وعيني هاجر في صمت، تخلصت منه الأخيرة بالانهماك في العمل وكأنها لم تستمع إلى الكلمة، فغيرت أم المنصور مجرى الحديث قائلة: كيف حال ولدي الصالح عمار؟

هاجر: بخير حال يا خالتي، إنه يقرئك وعمي السلام، وقد كان يعتزم زيارتكما عندما علم بمرضك، لكنه قد عرض له سفر إلى مصر.

أم المنصور: بارك الله لك في ذلك الزوج الطيب، لم أر قلبًا ناصعًا كقلبه، يكفي أنه يسمح لك بكثرة زيارتي، رغم...

وقفت الكلمة في حلقها وقد اغرورقت عيناها، فدنت منها هاجر وهي تقول لها بحنان جم: خالتي، عمار يعرف مكانتك لدي، هو أعقل من أن يمنعني عنك لهذا السبب، وصدقيني إنه لم ينس المنصور قط من صالح دعائه بالهداية والرشد.

انفجرت أم المنصور في البكاء وهي تحتوي هاجر بين ذراعيها وكلماتها تختلط بالأنين: قلبي يتفطر عليه يا ابنتي، لم

أجد طعم الراحة طيلة أحد عشر عامًا، يكويني ببعده واقترابه معًا يا هاجر.

لم ينتشل الاثنتين من الموقف سوى طرقات خفيفة على الباب، يقول صاحبها: ماء، تريدون ماء يا أهل الدار؟

أم المنصور: افتحي الباب يا هاجر ودليه على مكان الخابية[1] حتى يفرغ فيها الماء.

أرخت هاجر عليها حجابها، وما إن فتحت الباب حتى دخل رجل قد اشتعلت لحيته شيبًا يحمل على ظهره الذي احدودب قربة ماء، وهي تشير له تجاه الخابية، غير أنها قد استوقفها منظره وقد تسمر في مكانه مطرق الرأس.

أغلق الرجل الباب خلفه برفق وقد استوى ظهره وعلت قامته وهو يقول بصوت خافت: كيف حالك يا هاجر؟

«المنصور؟».

ما إن سمعت العجوز صوت هاجر وهي تنطق بهذا الاسم، حتى شرعت في النهوض من فراش مرضها لتستقبل

(١) وعاء الماء الذي يحفظ فيه، انظر: المعجم الوسيط (١/ ٢١٣).

ولدهـا، إلا أنه عاجلها بالمثول بين يديها يقبلهما ويضم والدته إلى صدره وهو يقول: لم أعلم عن مرضك شـيئًا يا أماه، وإلا كنت أتيتك حبوًا.

وضعـت الأم كفيهـا على خـدي المنصور وهـي تنظر إلى وجهه بلهفة وشـوق، وقالت والدموع تنهمر من عينيها: لقد ذهب عني مرضي اللحظة يا قرة عيني.

وقعت عينا المنصور على الجاريتين فتبسم لهما وضمهما إلى صدره، فقالت إحداهما: أنت عمي المنصور الذي يسافر دائما للتجارة أليس كذلك؟

حانـت من المنصـور ابتسـامة مرتبكة وهو يقـول: بلى يا صغـيرتي، أنا عمك المنصـور، قالها ثم التفـت إلى هاجر وهو يقول: شكرا لك لعنايتك بأمي.

« إنها أعتني بأمي».

قالتها وهي تصطحب ابنتيها في عجل بعدما ألقت نظرة سريعة على أم المنصور وهي تقول: أراكِ لاحقًا يا خالتي.

انصرفـت هاجـر بابنتيهـا وقـد خيـم الصمـت على من بالحجـرة، قطعتـه الأم كـي تنتشـل ولدها من وقـع الموقف،

وهي تسأل: ماذا فعلت بلحيتك يا منصور؟ أتراك قد شبت يا ولدي؟

ابتسم المنصور وهو يجيبها في حنان: كلا يا حبيبتي ولكنها وسيلة لإخفاء شخصيتي عن الأعين.

الأم: إلى متى ستظل طريدًا شريدًا يا قرة عيني؟

تجاهل المنصور سؤالها وهو يقول: كيف حال والدي؟

الأم وقد أدركت أنه يتهرب من الكلام في هذا الشأن: بخير يا ولدي، ولكن يزداد ضعفا ووهنا بمرور الوقت.

المنصور: كم اشتقت لرؤيته ولو خلسة قبل أن أسافر.

الأم وقد تملكها الفزع: تسافر؟ إلى أين يا منصور؟

المنصور: إلى دمشق يا أمي، لقد صار وجودي على مشارف حلب مصدر خطر كبير، ورجال الشرطة يجوبون المنطقة بحثا عني.

نظرت في وجهه بصمت يواري الكثير من صرخات الألم، فاستطرد وقد أطرق برأسه إلى الأرض: لقد كان بقائي هذه الشهور قريبًا من حلب حتى أتمكن من تفقد أحوالكما.

رفع بصره إليها مرة ثانية ليعتصر صمتها الحزين قلبه، فيشيح ببصره وهو يتصنع ابتسامة باهتة يقول على إثرها: قطعًا سوف أعود إليك ريثما تهدأ الأمور يا غالية.

الأم في وهن: أو تزور قبري يا منصور.

«كلا، لا تقولي ذلك يا أمي».

صرخ بها المنصور في رعب، ثم انكب على يديها يقبلهما، فمسحت على رأسه وهي تقول في تهالك بابتسامة جاهدت لترسمها على قسماتها: استودعتك ربي يا منصور، استودعتك ربي.

انتفض المنصور من مكانه وهو يحمل قربة الماء مرة ثانية على ظهره ويتجه ببطء ناحية الباب، ثم التفت إلى أمه التي أطلقت لدموعها العنان في صمت، وهو يلقي عليها نظرة دار بخلده أنها قد تكون الأخيرة قائلًا: وداعًا يا أمي.

كان مشهد الأم قاسيًا وهي تحاول كبح جماح أحزانها، وعبثا حاولت حجب دموعها، بل لم تستطع أن تتلفظ بكلمة واحدة وكأن الكلمات قد ماتت في حلقها، فرفعت كفها وهي تلوح به في ابتسامة شاحبة، وقلبها ينطق بلوعة الأسى: وداعًا يا ولدي.

أضواء العـز

اكتـظ الجامع الكبـير بالمصلين وهـم يسـتمعون إلى ذلك العالم الوقور الذي كست ملامحه الهيبة وهو يعلـم الناس أمور دينهم:

«فقوله تعـالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ﴾ [المائدة:٣]، يبطـل مزاعـم من يقـول بالتلقـي عـن الله أوامـره ونواهيـه وشرائعه بعـد وفاة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانقطـاع وحـي السـماء، لأنه بذلك يكذب صريح القرآن.

ومن جهـة أخرى فإن هذه الشرائـع والأوامر والنواهي مـن قبل الله تعـالى لا تكون إلا من خـلال الوحي، والذي لا يكون إلا لأنبياء الله ورسـله، كما قال الله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [غافر:١٥]، وهو الوحي يتنزل على الأنبياء والمرسلين بما فيه مصالح العباد».

وهنـا ألقى أحد الحضور سـؤالًا على الإمـام عبد العزيز ابن سـلام: يا شـيخنا، فـما قولك فيما يدعيه ابـن عربي من أن

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أتاه في المنام وأملى عليه كتابه الموسوم بـ(فصوص الحكم).

تبسم العز وهو يقول: يا أخا الإسلام، إن ذلك بيّن البطلان، لأن المنامات لا يؤخذ منها أي أحكام في عقيدة أو شريعة إلا لدى الأنبياء، فرؤاهم حق ووحي من عند الله، ولذلك عندما ذهب إبراهيم الخليل لذبح ولده قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فأجابه ولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، فقد علم كلاهما أن رؤيا الأنبياء حق ووحي من عند الله تعالى.

أما غير الأنبياء فرؤاهم لا ينبني عليها بيان اعتقاد لم يرد في كتاب الله أو سنة رسوله، ولا أحكام شرعية جديدة، ومن قال ذلك فقد افترى على الله الكذب.

وأما دعوى هذا الرجل بأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أملى عليه كتابه (فصوص الحكم)، فإني أتساءل: أذلك الرجل أفضل عند الله من صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يجتبيه دونهم ويعلمه ذلك العلم الجديد على حد زعمه؟

فمن قال نعم فقد كذَّب رسول الله إذ شهد لهم بأنهم خير القرون، ومن قال لا فقد أجاب نفسه بنفسه.

وواصل الشيخ كلماته التي أصغى لها الناس وكأن على رؤوسهم الطير: وإذا ما نظرنا إلى ذلك الكتاب سوف نرى فيه عجبا، فقد امتلأت صفحاته بالكفر والزندقة بما يستحي اللسان من وصفه ونعته.

وهنا ينبري أحد البسطاء ليسأل الشيخ: يا إمام، ماذا تعني عقيدة وحدة الوجود التي ملأ بها ابن عربي كتابه فصوص الحكم كما ذكرت؟

أجابه عبد العزيز: يعني بذلك أنه ليس هناك خالق ومخلوق، فكل شيء في الوجود إنما هو الله على حد زعمه، فالله كما يدعي الرجل هو أنت وأنا والملائكة والجن والإنس والطير والوحش والشجر والدواب والجبال، وكل هذه المخلوقات هي صورة لله وصفة له، تعالى الله عما يقول علوًّا كبيرًا.

علت صيحات الاستنكار لدى الحاضرين وهم يستمعون إلى حديث الشيخ عن كتاب ابن عربي، فاستطرد

الإمام: وليس ذلك فحسب يا إخوة الإسلام، لقد ادعى ابن عربي» أنه خاتم الأولياء كما كان النبي محمد صَلَّىٰ ٱللَّٰهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هو خاتم الأنبياء، والولي عنده أفضل من النبي لأنه زعم أن الولي يأخذ ويتعلم من معين الحق، والنبي يأخذ بواسطة الملك ومن يأخذ بلا واسطة خيرٌ مما يأخذ بواسطة، وإن كان الجميع عنده في النهاية عينًا واحدة، ولكنهم يتفاوتون في المراتب والمنازل»[1].

صمت عبد العزيز برهة بدا معها كأنه يغالب دمعة تريد أن تشق طريقها إلى وجنته، فتماسك وقد احمر وجهه قائلًا: ومن أقذر ما قرأت له في الفصوص زعمه أنه يتلقى عن الله بدون واسطة بل مشافهة، وعن اللوح المحفوظ رأسًا، ومن ذلك قوله: « فاقتصرت على ما ذكرته من هذه الحكم في هذا الكتاب على حد ما ثبت في أم الكتاب، فامتثلت ما رسم لي، ووقفت عند ما حد لي، ولو رمت زيادة على ذلك ما استطعت فإن الحضرة تمنع من ذلك»[2].

(١) ابن عربي، الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، ص(٢).

(٢) فصوص الحكم، محيي الدين بن عربي، ص(٥٨).

وتابع عبد العزيز: ومن ذلك أيضًا قوله في كتابه فصوص الحكم: «وأنا إن شاء الله أسرد منها في هذا الباب على قدر ما يقع به الأمر الإلهي في خاطري فكان هذا أول ما شوفهت به من هذا الباب»[1].

نظر عبد العزيز في وجوه الحاضرين برهة وهو يأخذ نفسًا عميقًا وكأن صدره ضاق بها يتكلم به، ثم استطرد: وإن تعجبوا فعجب تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ إذ يقول: « والولد عين أبيه. فما رأى يذبح سوى نفسه. وفداه بذبح عظيم، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان. وظهر بصورة ولد: لا، بل بحكم ولد من هو عين الوالد. (وخلق منها زوجها): فما نكح سوى نفسِهِ»[2].

«جزاك الله خير الجزاء يا إمام، أوجزت ووفيت» نطق بها الإمام أبو عمر الصالحي وقد أخذ مكانه بين الجلوس، فما كان من عبد العزيز إلا أن قال بعدما تبين من صاحب الصوت: إمامنا الجليل أبو عمر في مجلسي؟ هلا أخبرتنا من قبل لتأخذ مكاننا فأنت أولى به.

---

(١) المصدر نفسه، ص(٢٥).

(٢) المصدر نفسه، ص(٧٨).

أبو عمر: إنه لشرف لي أن أجلس بين يدي شيخ الشيوخ.

ختم عبد العزيز مجلس العلم ثم اصطحب الصالحي وسارا سويًا يتجاذبان أطراف الحديث.

أبو عمر: أرى يا شيخ أن نذهب إلى الوزير نرفع إليه أمر ذلك الرجل الذي انتشر ضلاله.

عبد العزيز: هذا أمر لابد منه يا أبا عمر، لكنك تعرف الوزير لن يقضي في الأمر قبل عودة الملك الأشرف من سفره.

أومأ الصالحي برأسه مؤيدًا الرأي، ثم استأذن عبد العزيز في الانصراف، فقال الأخير: هلا ضيفناك في الدار أبا عمر؟

الصالحي: جزيت خيرًا يا إمام، لكنني سوف أذهب للسؤال عن أحد تلاميذي قد اختفى قبل أيام ولا نعلم عنه شيئًا.

عبد العزيز في دهشة: هلا أبلغت الشرطة للبحث عنه؟

الصالحي: لقد جبنا المدينة طولها وعرضها، وعبثًا حاولنا العثور عليه، وحتى الشرطة لم يفلح بحثها عنه،

تنفس أبو عمر بعدها بعمق وهو يستطرد: إنه الابن الأوحد لأمه العجوز، ووالده متوفى، سل الله أن يرجعه سالمًا يا ابن سلام.

عبد العزيز: أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرد عليها ولدها.

ودعه الصالحي ثم مضى في طريقه مسرعًا وهو يمني نفسه بأن يسمع خبرًا سارًا عن أحمد، ذلك الشاب الصالح الذي اختفى فجأة مخلفا الأحزان والدهشة والحيرة لدى من حوله.



الخلـــوة

خرج الشيخ محيي الدين من داره في وقت متأخر من الليل وعلى عاتقه صرة أودع فيها بعض حاجياته، وهو يودع زوجته وولديه، بعد أن أخبرهما بعزمه على السفر، وأمام المنزل رجال الشرطة في أزياء عادية قد ساروا بصحبته بناء على أوامر قائدهم.

وقطع الموكب مسافات بعيدة إلى أطراف البلد، حتى انتهى بهم المسير إلى سجن دمشق، وما إن دلف عبر بوابته حتى استقبله قائد الشرطة جعفر بنفسه وقدم له التحية آمرًا الحراس بالانصراف عدا رئيس الحرس «شهاب» واثنين من رجاله.

سار جعفر بالشيخ ومن خلفهما الحراس في دهاليز السجن حتى وصل إلى حجرة بعينها وأمر قائد الحرس شهاب أحد رجاله بفتح قفلها، ليجد ابن عربي في انتظاره فراشا وثيرا على غير عادة السجون، وآنية معدة للوضوء وللشرب.

جعفر متبسمًا: لقد وقع اختيارك على مكان لم يكن ليخطر ببال أحد على الإطلاق، لكن لا تقلق يا سيدنا، فما هي إلا أيام حتى نقبض على بقية المجموعة وينتهي الأمر.

ابن عربي: كلامك يوحي بأنك تمكنت من القبض على بعضهم.

هز جعفر رأسه في فخر وهو يقول: بالفعل ألقينا القبض على زعيمهم، وهو قيد الاستجواب لمعرفة بقية أفراد جماعته.

ابن عربي في اهتمام: وهل توصلت إلى شيء؟ من هو؟ وهل يفعل ذلك من تلقاء نفسه أم أنه مأمور؟

ابتسم جعفر في خبث وهو يقول: على رسلك يا شيخ، أنت تعلم أنها أسرار، ولا ينبغي أن أطلع أحدًا عليها في الوقت الراهن.

مط ابن عربي شفتيه وهو يتمدد على فراشه، فمال عليه جعفر وهو يقول: لكنك عظيم القدر لدي، ولا تطاوعني نفسي أن أرد عليك طلبًا.

اقترب منه أكثر وقال بصوت خافت: إنه شاب يدعى أحمد العيار، من تلاميذ أبي عمر الصالحي.

ابن عربي بعد أن قطب جبينه: أتقصد ذلك الفتى الأشقر نحيف البدن؟

رسم جعفر على قسماته دهشة مصطنعة وهو يقول: إنه هو، هل تعرفه؟

ابن عربي: نعم، لقد غشاني في مجلسي منذ بضعة أيام وأغلظ لي القول، وهم الناس أن يقعوا به إلا أنني قد نهيتهم، ولذا لم تصبني الدهشة عندما ذكرت اسمه، فلا أستبعد ذلك على تلاميذ الصالحي هذا.

هم جعفر بالكلام لولا أن الشيخ قد استرسل وهو ممسك بلحيته يعبث بها: أيكون أبو عمر الصالحي هو الذي دفع تلميذه لقتلي؟

برقت عينا جعفر وهو يعاود ابتسامته الخبيثة وهو يمط شفتيه: الله أعلم يا شيخ، لا أتهم أحدًا بغير دليل، وما زال لدينا استجوابات مع الفتى، قد لا يكون للصالحي أي علاقة بالأمر.

صمت برهة ثم نظر إلى الشيخ من طرف خفي مستطردًا: أو قد يكون.

لم يمهل جعفر الشيخ لكي يعاود أسئلته، حيث قال: لا تقلق يا شيخ، سوف تجد كل وسائل الراحة هنا، الفراش

الوثير والطعام الشهي، وكل ما تريده، نحن نأمل في ألا يساورك شعور بأنك في سجن، وما هي إلا أيام حتى تخرج من هنا.

ابن عربي: ومن قال لك يا جعفر بأنني أود الخروج، لكم كنت أود أن أختلي بنفسي وها هي الفرصة أصبحت سانحة لذاك، بلغ مولانا الوزير بالغ شكري.

هز قائد الشرطة رأسه متبسمًا، ثم انصرف بعد أن أعطى أوامره لرئيس حراس السجن بتوفير كافة أنواع الرعاية للشيخ وتلبية كل رغباته، ولم يفته أن يشدد على جميع طاقم الحراسة في السجن في إخفاء أمر تواجد الشيخ في هذا المكان.

وما إن خرج قائد الشرطة من بوابة السجن حتى توجه إلى حيث وزير البلاد، لينبئه بآخر التطورات حيال الشاب الذي أودعه السجن بتهمة التخطيط لاغتيال ابن عربي.

الوزير: ماذا تقول يا جعفر؟ خمسة أيام ولم تحصل منه على شيء سوى تلك المعلومات فحسب؟ أين حزمك يا رجل؟ أريده أن يعترف بأسماء بقية مجموعته على الفور، ماذا لو عاد مولانا الملك الأشرف قبل إنهاء الأمر بشكل كامل؟

جعفر: حسنًا يا سيدي، سوف تطيب نفسك في القريب العاجل بكشف حقيقة الأمر، أعدك بذلك يا مولانا الوزير.



الدمعة الغريبة

وفي إحدى مغارات جبل قاسيون والذي يقع على الجانب الغربي من دمشق، كان رجال المنصور يتحلقون حول نار يستدفئون بها، وهم يتبادلون المزحات فتتعالى الضحكات، وقد جلس العبد أيوب معهم يستمتع بأحاديثهم الشيقة عن المغامرات والرحلات والمطاردات، ما جعل قلبه يتحرك بالشوق إلى أن يكون بمثل شجاعتهم وإقدامهم، غير أنه قد انتبه إلى سيده المنصور وهو مستلق على ظهره شاخص ببصره إلى أعلى وقد غرق في لجج الصمت الحزين وسالت من عينيه دمعة لم ينتبه إليها.

فارق أيوب المجلس وذهب صوب المنصور، فجثا على ركبتيه بجوار سيده ينتشله برفق من صمته: سيدي المنصور.

التفت المنصور ببطء إلى أيوب وهو يقول بحزم: ماذا تريد؟

أيوب: لماذا يبكي سيدي؟

المنصور: اخسأ، المنصور لا تدمع عيناه، قالها ثم تحسس بأنامله أسفل عينيه، ليفاجأ بأن دمعة دافئة سالت على وجنته

دون أن يـدري، وشـعر بالحرج إلا أنه قـال: ربما كانت بعيني علة.

أيوب في ابتسامة ودود: ولماذا لا يكون قلبك هو المعلول يا سيدي؟

المنصـور: لا تجاوز حدك أيهـا العبد، المنصور لا قلب له، وعينـاه لا تعرفـان الدموع، انصرف أيهـا الأبله وإلا ضربتك عنقك، انصرف.

انتفـض العبـد فزعـا وهـو يقـول: لا عليك يا سـيدي، سامحني، فقط رأيتك مهموما فأردت أن أخفف عنك، معذرة يا سـيدي معـذرة، فقام عن المنصـور في الوقت الذي صمت الرجال في الغار بعد غضبة قائدهم فالتزموا جميعًا الصمت.

مـا إن فارقه أيوب حتى عاد يتحسـس عينيه بأنامله ثانية وهو يحدث نفسه: ويحك يا منصور، ما هذا؟ منذ متى والدمع يجري على خديك، هل أصابك الوهن والخور؟

لم يدر المنصور لماذا سال دمعه، هل لأن شريط الذكريات قد عاود المرور أمام عينيه، أم لذلك الشـعور الذي تملكه بأنه لن يرى أبويه ثانية؟

«تعال هنا يا أيوب».

انتشـل المنصور نفسـه من أحزانه العاصفة بذلك النداء الموجـه إلى العبـد، والذي نهض من فـوره ومثل أمام المنصور وهو يقول: أمرك سيدي.

بدا المنصور وكأنه لا يعرف ماذا يريد، غير أنه سأل العبد أيوب: هل ساءك حديثي؟

العبد في سعادة بالغة: أبدًا يا سيدي، لم أر منك سوى كل خير وإحسـان منذ رأيتـك، أنا فقط لا أحب أن أرى سـيدي المنصور حزينًا.

منحـه المنصـور ابتسـامة واهنة وهـو يقول: ومـن منا يا أيوب لا يجتر أحزانه؟

هم أيوب بالحديث لولا أن المنصور باغته بقوله: ألا تود التجوال في دمشق؟

أيـوب وقـد فغـر فـاه في مشـهد جعـل المنصـور ينفجر ضاحكًا: ماذا؟

المنصـور: ماذا دهاك يا أيـوب؟ ألا تود التجوال معي في دمشق؟

أيوب: في هذه الساعة المتأخرة يا مولاي؟

مـط المنصور شـفتيه قائلًا: ومـا الفارق يا أيـوب؟! ليلنا نهار ونهارنا ليل.

أيـوب وهو يهتف فرحا: أود المسـير مع سـيدي المنصور أينما ذهب وحيثما اتجه.

«يا رجال، سوف أنزل إلى المدينة ومعي أيوب، لن نتأخر كثيرا».

قالهـا المنصور لرجالـه والذين تملكتهم الدهشـة ونظروا إليـه في صمت، غير أن المنصـور قد أخرجهم منه عنوة عندما صاح فيهم: مالكم لا تنطقون؟ هل أصابكم الخرس؟

صاح الجميع في وقت واحد فرقا من غضبة سـيدهم: في أمان الله يا زعيم، اعتن بنفسك.

اصطحب المنصور غلامه أيوب لينزلا إلى دمشـق، تاركا رجالـه قد نظر كل منهم إلى الآخـر في صمت، انفجروا عقبه في الضحك بلا انقطاع.



صرخات بلا أصداء

دوت صرخات الشاب أحمد بين جدران تلك الحجرة بمقر الشرطة، وقد جمعت كلتا يديه مقيدتين إلى أعلى خشبة قد ثبت جسده إليها، وزبانية التعذيب يمارسون عليه أبشع أنواع العذاب.

«أقسم بالله أني لا أعلم شيئًا عما تقولون».

نطق بها أحمد بصوت يحمل معه كل آلام الدنيا، حيث بدأ أحد رجال الشرطة في غرس شوكة حديدية بين لحم وأظافر قدميه لينتزع ظفره بلا هوادة وسط صرخات الفتى التي كادت أن تقتلع جدران الحجرة، حتى أغشي عليه من فرط الألم.

ولم يمهله رجال الشرطة فقد عاجله أحدهم بإناء من الماء البارد ليضيف إلى برودة الجو زمهريرا يعود معه الشاب المسكين إلى وعيه.

«ألا تريد أن تتكلم أيها العنيد؟ أخبرنا عن أعضاء جماعتك وتريح نفسك من التعذيب».

قالها الشرطي وهو يمسك بشعر أحمد حتى يرفع وجهه الذي تدلى للأسفل رغمًا عنه من فرط الإعياء.

أجابه أحمد في وهن وألم: يا سيدي أقسم لك أنه لم يدر بخلدي قط أن أقتل هذا الرجل أو أعين على قتله.

أخذ رجال الشرطة بغضب: أيها الأحمق، هل تكذبنا؟ وشرع في ممارسة طريقة التعذيب البشعة هذه، وبدأ يقترب من ظفر آخر ليقتلعه من قدم أحمد والذي صرخ يرجو زبانية العذاب قائلًا: الرحمة، الرحمة، والله لقد صدقتكم القول.

بدأ التعذيب من جديد وعاد معه الصراخ الذي يقطع أوصال كل من كان له قلب عدا زبانية التعذيب الذين لم يحركوا ساكنا ولم تطرف لهم عين.

«على رسلك يا جلال».

كان القائل هو جعفر قائد الشرطة والذي دخل إلى الحجرة منذ فترة وجيزة وظل يتابع المشهد في صمت، ثم استطرد في شفقة مصطنعة: «ما هذه القسوة مع ذلك الشاب الطيب؟

نظر إليه أحمد في تهالك وإعياء يلتمس لديه إطلاق سراحه ويقول: أقسم يا سيدي أنني لا أعلم شيئًا عن تلك المؤامرة التي تتحدثون عنها، والله الذي لا إله إلا هو لو كان الأمر كذلك لاعترفت به.

جعفر في خبث: أصدقك يا أحمد، إنني أعرف عنك كل شيء.

ظل يدور حول أحمد ببطء وقد شبك يديه وراء ظهره ماطا شفتيه مستطردًا: والدك الذي توفي قبل عشر سنين، أمك العجوز المريضة التي لا أهل لها سواك، عملك الذي طُردت منه الشهر الماضي، و....

صمت برهة ثم استطرد في بطء: وعلاقتك بالشيخ أبي عمر الصالحي.

نظر أحمد إلى قائد الشرطة في تأمل وكأنه يتطلع لكشف الغموض عن مغزى الكلمة، إلا أن جعفر لم يمهله لمزيد من التفكير إذ واصل حديثه: أنت فتى طيب خلوق يا أحمد، وليس هذا مكانك، وأعرف أنك بريء، غير أنك على صلة وطيدة برأس المؤامرة.

نظر إليه أحمد في دهشة تمتزج بما يرتسم على ملامحه من ألم خلفه التعذيب الوحشي على مدى أيام، فقال له: ماذا تعني يا سيدي؟

جعفر في خبث: لا أخفيك سرًّا يا أحمد، فشيخك أبو عمر الصالحي يدبر مؤامرة لقتل محيي الدين بن عربي، وهذا بالطبع يحدث فتن وقلاقل في المدينة، ويفتح أبواب الشر، وله أتباع من الشباب سوف ينفذون الاغتيال.

هم أحمد بالحديث، إلا أن جعفر أشار له بيده ليصمت، ثم استطرد: أعلم جيدا أنك لست منهم، لكننا نحتاج للقبض على هذه المجموعة لإحباط المؤامرة من ناحية، ومن ناحية أخرى لأخذ اعتراف مكتوب منهم في تورط الصالحي، وأنت من طلاب العلم وتعرف أن هذه جريمة ولابد من معاقبة الجناة، أليس كذلك؟

أحمد: يا سيدي أشهد بالله أني سمعت الشيخ بأذني ينهى عن مجرد التفكير في قتل ابن عربي رغم ضلاله، وذكر أمام الجميع أن تلك الأمور موكولة لولي الأمر.

جعفر: هذا ما يردده علنا يا أحمد، لكنه تواطأ مع عبد العزيز ابن سلام في تحريض مجموعة من الشباب لاغتيال الشيخ.

أحمد: حتى لو كان يا سيدي، فما جريمتي أنا؟ وهأنت تقر ببراءتي، فلم أحتجز هنا وألقى كل ألوان التعذيب؟

ابتسم جعفر: سوف تقوم بعمل هين يا أحمد، وأعدك أن نطلق سراحك بعدها وتذهب إلى أمك.

عاد من جديد ليرسم على ملامحه الشفقة المصطنعة قائلًا: إنها تحتاجك يا أحمد، فلترحم هذه العجوز التي تعاني المرض والوحدة، كيف لو حدث لها مكروه في غيابك؟ لن يعلم بها أحد، وماذا عن رعايتها؟ ماذا عن أحزانها التي قد تهلكها؟

كان أحمد يستمع إلى تلك الكلمات التي تجسدت مشاهد حية أمام ناظريه تتمزق معها نياط قلبه، فقال بلهفة: دلني على هذا العمل يا سيدي، أنا رهن إشارتك.

اتسعت ابتسامة جعفر وهو يربت على صدر أحمد وهو يقول: فكوا وثاقه يا رجال.

سارع أحد الرجال إلى فك قيده فلم تتحمل قدماه الوقوف فوجد نفسه قد انطرح أرضًا، فجعل يلهث وهو يطلب الماء، فأتوا إليه بإناء شرب منه، ثم واصل لهثه.

فأخرج جعفر من ثيابه ورقة بسطها أمام عيني أحمد وهو يقول: فقط أريدك أن تصادق على مضمون هذه الورقة بتوقيعك يا أحمد.

نظر أحمد في هلع وهو يطالع المسطور في تلك الورقة، وقد شعر أن الدنيا قد أظلمت في عينيه، وعلم يقينًا أنه لا يملك خيارًا ثالثًا، إما أن يصادق على محتوى الورقة، وإما سيظل في العذاب المهين، تنطلق منه الصرخات تلو الصرخات، غير أنها صرخات بلا أصداء، لا تجاوز الجدران، ولن ينصت إليها صاحب قلب رحيم.



فارس الظلام

نزل المنصور برفقة العبد أيوب إلى دمشق في ذلك الوقت المتأخر من الليل، يتجولان في أنحاء المدينة، وقد غمرت أيوب فرحة عارمة وهو يحيا كالسادة، وأما المنصور فقد بدا كالطفل وهو يلهو مع قطرات المطر، ووقف يبسط ذراعية لها كأنه يحتضن حبيبًا غاب عنه، وهو يقول: كم اشتقت لأن أسير بين الناس في أمان يا أيوب، أتجول كما يتجولون، ها نحن ذا في دمشق التي لا يعرفنا فيها أحد، نسير كما يسير الآخرون، فتابع الضحك وهو يرفع وجهه لأعلى مبتسمًا ويقول: يا الله.

وظل أيوب يطالع سيده وهو في لهوه وسعادته، يحار في ذلك الرجل الذي لا يستطيع أحد أن يحدد ملامح شخصيته، غليظ الطباع أحيانًا، وفي رقة نسمات الليل أحيانًا أخرى، يراه عابسًا متجهمًا في غير المقام، ويراه ساعة أخرى متبسمًا في غير المقام أيضًا، تارة تنم قسماته عن هرم شيخ طاعن، وتارة أخرى تنم عن طفولة صبي ينشر جناحيه للدنيا.

التفت المنصور إلى أيوب وهو يطالعه فأدرك حالته، فقال في هدوء وهو يواصل سيره: كانت هذه عادتي منذ الصبا.

اتسعت ابتسامته وهو يتابع: لم أتوقف عنها حتى عندما صرت إلى فترة الشباب، أخذ المنصور نفسًا عميقًا ثم استطرد: كان أبي الحبيب يضحك إذا رآني على تلك الحال، ويقول: هكذا كان جدك، وذات مرة...

توقف عن الحديث فجأة حيث رأى من بعيد رجلًا يتلفت حوله قبل أن يتجه إلى بيت بعينه قد بدا بابه غير موصد ليدخل منه الرجل شاهرًا سيفه.

وهنا أمر المنصور أيوب بالعودة إلى الجبل، فأبى العبد إلا أن يبقى مع سيده، فما كان من الأول إلا أن نهره قائلًا: نفذ ما أقول.

قالها متوجها إلى ذلك البيت، ووقف بالخارج في صمت وحذر، ليتناهى إلى سمعه صوت رجل يقول في غلظة: تكلمي أيتها العجوز وأخبريني أين خبأت أموالك، وإلا ضربت عنقك.

أجابه صوت واهن تدل نبرته على كبر صاحبته: يا بني أقسم لك أنني لا أخبئ أموالًا.

«دعها وانصرف سالما».

قالها المنصور في هدوء وقد ثبت نظراته على عيني اللص، فرفع الأخير سيفه بعفوية، وهو يقول في حذر: ومن أنت؟

رد عليه المنصور: أنا ولدها.

انفجر اللص ضاحكًا وهو يقول: ولدها؟ أتظن أيها الأحمق أنني دخلت الدار فجأة، لقد علمت أن ولدها خرج وتركها وحيدا، وأنت تقول أنك ولدها؟

المنصور وهو يضغط على أضراسه: اعتبرني مكانه، وأكرر: انصرف من هنا سالما.

اللص وقد استشاط غضبا: ما أحسبك إلا لصا يريد أن ينازعني غنيمتي.

تحرك ناحية المنصور بقوة شاهرًا سيفه ليفاجأ بيد فولاذية تمسك بمعصمه في خفة وسرعة حتمًا أدهشته وهو يتلقى ركلة في معدته ليسقط أرضًا أمام المنصور، والذي اعتلى ظهره وطوق عنقه بيمينه ثم أمسك بشعر رأسه بقوة ليصدمه بالأرض فيغيب اللص عن وعيه.

قام المنصور وقد أخرج خنجره من غمده وهم بذبح اللص، إلا أن العجوز قد استوقفته في هلع: لا، لا يا بني، لا ترق دمه.

المنصور: ويحك أيتها العجوز، لقد كاد أن يقتلك.

العجوز: لكنه لم يفعل، دعه يا بني، لا تلوث يدك بدمه فتبوء بإثمه، يكفيه ما ناله، ربما كان لديه أبناء ينتظرون عودته، أرجوك يا ولدي لا تقتله.

بدأت ملامح المنصور تستعيد هدوءها وهو يغمد خنجره، ثم نظر إليها وأخذته بها رأفة، وهو يسألها: يا أم، لماذا لم تتأكدي من إغلاق الباب؟

أجابته العجوز في أسى: أستأنس بمرور الناس أمام البيت يا ولدي، لو أصابني مكروه فلن يعلم بي أحد.

المنصور: أحقًّا هجرك ولدك؟

العجوز وهي تنتحب: لم يكن أحمد ليتركني، لقد خرج يصلي الفجر ذات يوم، ولم أعلم عنه شيئًا منذ ذلك الحين، قلبي يحدثني أنه قد أصابه مكروه، شيخه الصالحي وأصدقاؤه قد بحثوا عنه طويلًا دون جدوى.

المنصور: أليس له أقارب خارج دمشق؟ ربما يكون قد سافر إليهم.

أم أحمد: ليس له من أهل سواي، فوالده أفغاني الأصل جاء في شبابه إلى دمشق وعاش فيها وتزوجني، ولا أعلم شيئًا عن أهله، وأما أنا فمن بقي من أقاربي في حمص قد أرسلت إليهم فأخبروني أنهم لا يعلمون عنه شيئًا.

المنصور وقد تملكته الحيرة وهو يستمع إلى تلك المأساة: ولكن كيف تعيشين أيتها العجوز؟

أم أحمد: من خلقني لم ينسني يا ولدي، ذلك الشيخ الطيب أبو عمر يرسل إلي ما أحتاجه من طعام، وبنات الجيران يأتين إلي كل صباح يقضين حاجاتي.

كان ذلك الكلام هو آخر ما نطقت به العجوز قبل أن تنظر في هلع إلى شيء ما خلف المنصور، والذي لم يكد يستدير حتى سمع صرخة تأتي من ورائه، فإذا هو باللص قد هوى على الأرض وسيفه قد سقط منه، ويتأوه من الألم وهو يمسك بمؤخرة رأسه، بينما يقف العبد أيوب لاهثًا وبين يديه حجر.

«الرحمة أيها الرجل الصالح، الرحمة والعفو».

قالها اللص وهو يبسط يده أمامه كأنه يخشى أن يصب المنصور جام سخطه عليه، فاستطرد اللص وهو يستجدي المنصور: دعني يا سيدي، فإن لي عيال، وأعدك ألا أعود إلى ذلك الحي ما بقيت، أنت رجل صالح تنعم بحفظ الله.

كان المنصور قد وقف في صمت دون أن يفكر في محاولة اللص اغتياله، وإنما فيما نطق به: «أيها الرجل الصالح...تنعم بحفظ الله».

فما كان منه إلا قال للص بكل هدوء: اذهب، لم يكد اللص يسمع تلك العبارة حتى قفز من مكانه ليعدو هاربًا.

استدار المنصور إلى أيوب والذي ما زال يمسك بالحجر فمنحه ابتسامة عذبة وهو يقول: أنقذت حياتي يا أيوب.

ألقى أيوب الحجر من يده وهو يحتضن المنصور باكيًا وهو يقول: دمي فداء لك يا سيدي، كنت على وشك أن أفقد أهلي جميعًا، فأنت أهلي يا سيدي المنصور.

ربت الأخير على كتفه مداعبًا: ألا يمر عليك موقف دون دموع أيها العبد؟

ما إن أتم العبارة حتى نظر خلفه فإذا بالعجوز ممدة على الأرض، فجثا على ركبتيه يتفحصها، فلما اطمأن أنها على قيد الحياة، علم أنها قد أغشي عليها بسبب صدمة المشهد، فحملها إلى فراشها، وجلس مع أيوب لا يرفعان عينيهما عن العجوز حتى أفاقت وكان أول ما نطقت به: هل أنت بخير يا ولدي؟

ابتسم المنصور وهو يرى فيها صورة أمه هند، فقال لها: نعم يا أمي، أنا بخير، ثم أشار بيده إلى العبد قائلًا: وهذا صديقي أيوب، هو الذي أنقذني من اللص.

همت العجوز بالحديث إلا أن المنصور قاطعها ضاحكا: اطمئني أيتها العجوز الطيبة، لم أنل من اللص وتركته يمشي.

ابتسمت العجوز قائلة: أحسنت يا ولدي، ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤].

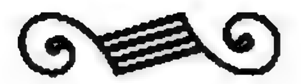
تأمل المنصور قسماتها فإذ به يرى صورة أمه فيعتصر الألم قلبه، لكنه سرعان ما استرده الواقع فقال للعجوز: اسمحي لي يا أماه بأن أتناوب مع أيوب في حراستك بالليل

أم أحمد: لا تخش علي يا....

«المنصور، ولدك المنصور».

قالها في الوقت الذي كان أيوب يتأمل ذلك القاتل المأجور الذي تتفجر فيه ينابيع الرحمة والشفقة والحنان، ولم يكن ليخطر له ببال أن يضم سيده تلك اللفتات الرائعة بجانب القتل والسرقة والعنف.

مر أسبوع كامل والمنصور يتناوب مع أيوب المبيت مع العجوز لحمايتها، ومع ذلك كان يأتي إليها في غير نوبته ليطمأن عليها، وها هو أسبوع آخر يمر، جعل المنصور يلازم أم أحمد، ويقوم على خدمتها ليل نهار، حتى جعل الناس يتحدثون عن ذلك الفارس المضيء الذي بزغ من قلب الظلام ليكون عوضًا لتلك العجوز عن ولدها المفقود.



العظام الواهنة

جلس الشيخ الهرم همام في دكانه بسوق حلب شارد الذهن قد بلغ منه الهم مبلغه، يأتيه الشراة ليبيعهم بضاعته ثم يعاود شروده.

وقعت عيناه على شاب فتي يحمل قربة الماء على ظهره يطرق الأبواب ليسقي أهلها بالأجرة، فداعبته الذكريات، ورسمت ابتسامة ثابتة على وجهه جعلت المارة ينظرون إليه بدهشة، غير أنه لا يراهم، لقد قفز كيانه إلى ما قبل أحد عشر سنة.

ها هو يسير بجوار ولده المنصور وعلى ظهر كل منهما قربة الماء، يسقيان دور المدينة، ويحمدان الوهاب على ما وهب، كانا كأخوين، لا بل كصديقين، لا تفارق البسمة كليهما، يغبطهما الرائح والغادي على تلك السعادة التي ترتسم على ملامحهما.

ومع نهاية اليوم يشتريان ما يلزم الأسرة الصغيرة من أمور المعاش، ليتأبط الوالد العطوف ذراع ولده البار، ثم يكون اللقاء الحار بسيدة المنزل هند أم المنصور، ويجلس

ثلاثتهم يتناولون العشاء يتبادلون المزحات، وتداعبهم الآمال.

«ألديك شعير جيد يا شيخ همام؟».

بتلك الكلمات انتشل أحد الشراة أبا المنصور من شروده، فقام في بطء ينم عن ضعف قوته وشيخوخته وهو يقول: سأريك ما لدي يا بني.

ما إن خطا أبو المنصور خطوة واحدة حتى خارت قواه ولم تحمله قدماه، فتمدد أرضًا بينما تجمع الناس حوله يحاولون إنعاشه، فلما يئسوا من نهوضه أجمعوا على أن يحملوه إلى منزله.

وفي تلك الأثناء كانت أم المنصور تجلس مع هاجر والتي غابت عنها أسبوعين، ما جعلها تشتاق إلى حديث تلك السيدة طيبة القلب، وبينما كانتا غارقتين في الضحك وحولهما بنتا هاجر، حتى سمعتا طرقات سريعة على الباب.

تهرع هاجر لتفتح الباب، فإذا بالناس يحملون الشيخ همام والذي لم يكن يتحرك منه سوى عيناه تدوران في محجريهما، ولسانه الذي لم يفتر عن ذكر الله تعالى.

هبت هند فور رؤيته من على الأرض لتصدر منها شـهقة فزع: ماذا دهاك يا همام؟ أخبرني.

أجابهـا أحـد الرجال: لقد مادت بـه الأرض يا أماه، ربما أصابـه الإرهاق بسـبب العمل، لا تخافي، سـوف يكون بخير إن شاء الله.

جلسـت هنـد بجانـب بعلها المسجى ببردة على فراشـه وهي تسبل الدمع على حاله بعدما انصرف القوم، وأما هاجر فكانـت تعـد له شرابًـا دافئًا، مـا إن فرغت من إعـداده حتى جعلت هند تسقيه زوجها رشفة رشفة وهو يطالع وجهها.

أبو المنصور: كم أخشى عليك من بعدي يا هند؟

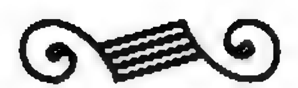
هند وقد أصابتها لوعة الحزن: لا تتفوه بمثل هذا الكلام يـا همام، سـتعيش إن شـاء الله حتـى تواريني الـتراب، قالتها وانكبت تقبل يده.

نظـر همـام إليهـا بأسـى ووهن وقـد سـالت دموعه على وجنتيـه وهـو يفاجأها بما لم تكـن تتوقعه: اشـتقت إلى ولدي المنصور يا هند.

أجابته بدمعة باسمة: سيأتي يوم ويعود ولدنا إلينا، وتعود البسمة كما كانت تملأ دارنا يا همام.

ابتسم همام ابتسامة شاحبة تمامًا مثل وجهه الذي بدا عليه الضعف والإعياء فقال: ليته يدركني قبل أن أرقد تحت الثرى يا هند، ليته يدركني.

جثت هند على ركبتيها ودفنت وجهها في صدره وهي تقول: سيعود يا همام، سيعود إن شاء الله.



بين الحياة والموت

تمدد ابن عربي على ذاك الفراش في محبسه الاختياري وقد جلس يطالع سقف الحجرة مشبكًا يديه خلف رأسه يتوسدها يستعيد ذكريات حياته في الأندلس مع الفيلسوف ابن رشد، ومقامه بمكة وعشقه ابنة شيخه.

وبينما هو على حاله هذا إذ بقائد الشرطة جعفر يدخل عليه ويجلس معه يتجاذبان أطراف الحديث.

جعفر: أردت أن أبشرك يا شيخ محيي الدين بأنك سوف تسمع خبرا يسرك عن غريميك في القريب العاجل.

ابن عربي متبسمًا: أتعني الصالحي وابن سلام؟

بادله جعفر بابتسامة أوسع وهو يقول: ومن غيرهما.

سأله ابن عربي: وكيف ذلك يا جعفر؟

ضحك جعفر ضحكة تفيض خبثًا وهو يقول: لقد ثبت تورطهما في تحريض الفتى أحمد على قتلك.

اختفت علامات السرور فجأة من ملامحه كالذي تذكر ما يزعجه فتابع: لكن الفتى إلى الآن لم يصادق على اعتراف منه بأنهما قد حرضاه.

عاوته الابتسامة الخبيثة مرة أخرى وهو يقول: لكنه حتمًا لن يصمد كثيرًا، فرجالي يقومون معه بما يلزم.

وما كاد يتم عبارته حتى دخل عليه أحد رجاله وقد أتى لفوره من مقر الشرطة، فقال وهو يلهث: سيدي، سيدي.

جعفر: ماذا هنالك يا موسى؟ تكلم يا رجل.

التقط الشرطي أنفاسه ثم مال على أذن قائده والذي اتسعت حدقتاه حتى آخرهما وهو يقول: اتبعني، قالها وهو يستأذن الشيخ في الانصراف.

تحرك جعفر ورجال موكبه سريعًا إلى حيث مقر الشرطة، ليدلف مسرعًا إلى الغرفة التي يحتجزون بها أحمد، ليجد قائد الشرطة نفسه أمام شخص آخر غير الفتى السجين، فذلك الذي يقبع في قيده كان ينظر للحاضرين في بله يأتي بحركات غريبة، فهو يبتسم ويضحك تارة، ثم تتسع عيناه رعبًا تارة أخرى، ويتدلى لسانه أحيانًا، ويخفض رقبته بين كتفيه أحيانًا أخرى، ويهذي بكلام متقطع غير واضح المعالم، وكأنه ينتقي كلمات عشوائية من صور في مخيلته.

التفت جعفر في هلع إلى الطبيب وهو يقول: ألا يمكن أن يكون هذا تصنعًا وخديعة.

هز الطبيب رأسه نفيًا وهو يقول: الأمر كما أخبرت به رجالك، لقد جن الفتى، فقد عقله.

وضع جعفر قدمه اليمني على حجارة مرتفعة واتكأ بمرفقه على فخذه وهو يقول في هدوء للطبيب دون أن يلتفت إليه: انصرف أنت أيها الطبيب، صمت برهة وهو يدرك الطبيب قبل خروجه من باب الحجرة بقوله: واحذر أن تتفوه بكلمة واحدة حول هذا الشاب.

ارتبك الطبيب وهو يقول بابتسامة متوترة: بالتأكيد يا سيدي، بالتأكيد.

ظل جعفر صامتًا على هذه الهيئة يفكر بعمق وهو يحدث نفسه: لم يعد هذا الفتى ذا جدوى إذًا، لن يبدو الأمر طبيعيًا وأنا أقدم لهم مجنونًا على أنه قائد مجموعة تسعى لاغتيال ابن عربي، لابد من البحث عن حل بديل قبل أن يعلم الوزير بالأمر.

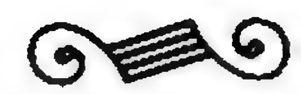
وماذا لو أخبرت الوزير بأن الفتى قد جن تحت وطأة التعذيب وينتهي الأمر؟ لا، لا، لن يصدقني، هل أخبره بأنه قد مات؟ قد يتهمني بالمخادعة، أنا أعرفه جيدًا، حذِر ولا يثق بأحد.

ظلت الأسئلة تراوده ولا تزيده الإجابة عليها إلا حيرة، فأمسك برقبته بعفوية وهو يتخيل لحظة مقتله عندما يكتشف الوزير كذبه، ليهز رأسه بقوة وكأنه ينتزع تلك الخطرات التي غزت عقله، ثم قال: ليس أمامي سوى القبض على شاب آخر مكان أحمد، وعلى كل حال لن يهتم الوزير بأن يراه بنفسه، ويمكنني ضم اثنين أو ثلاثة إليه باعتبار أنهم من أفراد المجموعة، وأما القاضي فأمره بيدي، فينفذ فيهم الحكم دون أن يراهم الوزير أو حتى الملك الأشرف إن عاد.

راقته الفكرة لدرجة تبددت معها معظم مخاوفه، فاستطرد وعيناه تبرقان بالغيظ: ولن يفوتني انتزاع اعتراف منه على أبي عمر الصالحي وابن سلام بأنهما حرضا على اغتيال ابن عربي، وبذلك تكتمل أركان الخطة، قالها ثم انفجر ضاحكًا.

اعتدل جعفر وهو يخطو بهدوء تجاه أحمد، ونظر إليه برهة ثم قال: كنت ستموت على أي حال.

كان أحمـد يهذي بكلمات مبهمة ومفردات لا رابط بينها، وبدا كأنه لا يستمع إلى أي من كلمات جعفر، لقد كان أشبه بجثة هامدة تقف على قدمين، ليس بين الأموات وليس مع الأحياء، بل هو بين الحياة والموت.



مهمة مختلفة

نزل المنصور من الجبل قاصدًا دمشق حيث دار أم أحمد، وقطع المسافة الفاصلة شارد الذهن، يستبد به الشوق إلى والديه، والخوف عليهما أيضًا، يحاول جاهدا أن يدفع أي أمل يلوح في خياله بأن ينعم بحياة هادئة بين أبويه مرة أخرى بعد هذه الشوط البعيد الذي قطعه في طريق الجريمة.

ولم ينتزع المنصور من شروده سوى مشهد غريب التقطته عيناه لدى دار أم أحمد، حيث يفترش أيوب الأرض على الباب واضعًا كلتي يديه على رأسه مطأطئًا، فما كان من المنصور إلا أن سارع خطاه حتى وصل إلى الدار وهو يسأل العبد: ماذا حدث يا أيوب؟

رفع أيوب وجهه الذي بللت معظمه الدموع، وأشار إلى الداخل دون أن ينطق بكلمة، فهرع المنصور يقتحم ليجد الحجرة مكتظة بالبشر.

فأمام الباب إلى جهة الحائط المقابل، كان يجلس على أريكة قديمة، شاب ممزق الثياب رث الهيئة بدت عليه أمارات الجنون وعلى جانبيه شيخان وقوران يحوقلان ويسترجعان.

لم يفك المنصور رموز الموقف إلا بعدما التفت يسارًا ليجد بعض النساء وقفن على فراش أم أحمد، وأمامهن على الفراش جثة قد سجيت بغطاء فلا يرى منها شيء.

في لحظات استوعب المنصور الموقف وهو ينقل نظراته في هلع بين ذلك الشاب وذلك الجثمان، فسأل أحد الشيخين: أهو ولدها أحمد؟

هز الشيخ الصالحي رأسه في بطء وهو مغمض العينين أن: نعم، ليعاود المنصور السؤال في هدوء عاصف: وكيف ماتت العجوز؟

أجاب الشيخ ابن سلام: أحد الجيران شاهد بعض الفرسان ينزلون أحمد إلى حيث الدار ثم ولوا هاربين.

وهنا تدخل الجار بقوله: اقتربت منه وقد تملكتني الدهشة لمنظره الغريب، ولم يعرفني حين سلمت عليه، ونظر إلي في صمت وهو يشرع في السير بعيدًا عن المنزل، فاستوقفته وأخذت بيده إلى داخل بيته وانقاد إلي كأنه طفل صغير.

استعبر الرجل وهو يستطرد: نهضت أمه من فراشها عندما رأته لأول وهلة وهي تحتضنه باكية، بينما كان مسبلًا

ذراعيه ويأتي بحركات تنبئ عن حاله، جعلت العجوز تتفحصه في هلع وهي تطلق صرخات مزقت فؤادي، حتى انكبت على وجهها دون حراك، فإذا هي قد...

صمت برهة ثم تابع: قد فارقت الحياة.

«كلاااااااااااااااا».

انتفض الحضور لصرخة المنصور التي زلزلت أركان البيت، وقد جثا على ركبتيه، ويعاود الصرخة مرة أخرى، قبل أن يهب واقفًا ويمسك بتلابيب الجار وهو يقول: من هم الذين جاءوا به؟ هل تعرف أحدًا منهم؟

أجاب الرجل في فزع: لا يا سيدي، لست أعرف أحدًا منهم.

ارتخت يدا المنصور وهو يكور قبضتيه في غضب وهو يغمض عينيه رافعًا وجهه لأعلى، إلا أن الرجل تابع الحديث: لكنني سمعت أحدهم ينطق باسم «بدر».

انتفض المنصور بعد هذه العبارة، ليسأل مرة أخرى: هل سمعتهم يقولون شيئًا آخر؟

هز الرجل رأسه نفيًا، فاقترب المنصور ببطء إلى حيث ترقد أم أحمد وظل واقفًا أمامها بعد أن أوسعت له النسوة، وهو يهز رأسه أسفا ذات اليمين وذات الشمال، يكبت دموعه حتى لا تخونه وتخرج عن طوعه، فخاطب جثمانها بكل أسى:

ليتني أنظر في عينيك يا أماه وأرى بهما ما قد رأيتِ، حصدوا فرحتك الوحيدة في الدنيا يا أم أحمد؟ نالت منك شريعة الغاب وأنياب الذئاب أيتها العجوز؟

كان المشهد مهيبا حيث كان الجميع ينظرون إلى المنصور كأن على رؤوسهم الطير، تأثرت قلوبهم بأوجاع ذلك الغريب التي فاضت بها كلماته، بينما لم ير هو سوى ذلك الجسد المسجى الراقد بلا حراك.

أخذ المنصور نفسًا عميقًا وهو يرفع وجهه إلى السماء قد أغمض عينيه وكأنه يسجن دموعه قائلًا: يارب، يارب، مكّنّي منهم يا الله.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

تلا الشيخ ابن سلام هذه الآية وهو يربت على كتف المنصور، ثم تابع: حقوق العباد لا تضيع يا ولدي، عاجلًا أم آجلًا.

التفت المنصور إليه وهو يهز رأسه بهدوء وهو يقول: أنت الشيخ أبو عمر الصالحي؟

«بل أنا يا أيها الشاب الشهم».

قالها الصالحي وهو يتقدم صوب المنصور، فسأله الأخير: أخبرتني أم أحمد رحمها الله عن صنيعك معها وولدها من قبل.

ابتسم الصالحي: وكذلك هي أخبرتني عن دماثة أخلاقك ومروءتك يا منصور.

لم يتعجب المنصور أن ناداه الشيخ باسمه طالما حدثته العجوز، إلا أنه سأل الصالحي بتأثر: وماذا عن أحمد؟

الصالحي: هو ولدي، سأعتني به، لا عليك.

صمت المنصور برهة وقد اطمأن لحال أحمد، فارتسمت علامات الغضب عليه من جديد وهو يقول: هذا دورك إذا، أما دوري أنا فأعرفه.

ما إن أتم المنصور كلماته حتى انطلق وخلفه أيوب إلى حيث الجبل، إلى حيث رجاله الذين أصابهم الضجر والسخط على تلك الحال التي وصل إليها المنصور من تجاهل عمليات السطو التي يقتاتون منها ويعيشون بها ولها، ومن أجل أمر لا ناقة لهم فيه ولا جمل.

دخل المنصور على رجاله وقد أسند بعضهم ظهره للصخر، ومنهم من يعبث بعصا صغيرة في الأرض، ومنهم من يشيح بوجهه إلى غير الجهة التي يقف فيها المنصور، ومنهم من تمدد على ظهره في صمت.

لم يطلب المنصور منهم تفسيرًا لما يراه أمامه، لأنه يعلم ماذا ألمّ بهم، ويلتمس لهم العذر في ذلك، ولذا وقف في منتصف الغار دون أن يجمعهم بل شرع على الفور في حديثه والذي أخذ طابعًا جديدًا مختلفًا عما عهدوه من كلام المنصور الرجل الصخري الحازم.

«ألتمس لكم العذر، فأنتم لم تتبعوني إلا لنحيز المال ونشعر سويًا بالقوة والسطوة، وليس من أجل أمر تسوق إليه العاطفة.

أنتم عرفتم المنصور غليظ الطباع، سفاك الدماء، عرفتم المنصور الذي تجرد من إنسانيته ونزعت من قلبه الرأفة»، صمت برهة ثم تابع وهو يدور ببطء في الغار، وعيونهم تتابعه في دهشة وتأثر، وفضول أيضًا لما يود المنصور قوله: «لكن المنصور لمن يكن هو المنصور، كنت يومًا ما إنسانًا، بشرًا، يحب ويحزن ويتأثر ويدمع، حاولت طوال هذه السنوات من عمري أن أقتل ذلك الإنسان أو ما تبقى منه، فالطريق الذي دُفعت للسير فيه لا يصلح معه الضعف».

بدأ الرجال ينهضون ببطء واحدًا تلو الآخر ليلتفوا حول المنصور وقد استبد بهم الذهول لما يسمعون من زعيمهم في الإجرام، وبدا أن الكلام قد وقع منهم بمكان، فتابعوا الإصغاء في صمت بينما يواصل المنصور حديثه:

«لقد انتهيت بسبب الظلم وقضي على آمالي وأحلامي، لأجد المشهد يتكرر هذه الأيام عندما عرفت هذه العجوز رحمها الله».

أصابتهم الدهشة فتوجهت أبصارهم إلى أيوب وكأنهم يسألونه عن موتها، فهز رأسه في صمت حزين، فتحركت

أعينهـم بتلقائية إلى المنصور الذي يتابع حديثه: هي أيضًا كان لهـا حلم، كان لها أمل، لكـن الظلم الذي قتلنـي أجهز عليها وقتل حلمها وأملها.

ولـذا فإنه لو بقي في حياتي يوم واحد، فسـوف أقضيه في القصـاص لهذه العجوز التي قتلتهـا الحسرة على ولدها الذي سلبوه عقله في ريعان شبابه.

أعلم أنها ليست قضيتكم»، صمت قليلًا وهو يأخذ نفسًا عميقًـا رافعًا رأسـه لأعلى ثـم يستطرد: «الآن انتهت رحلتنا سويًّا، بوسعكم قطعها بدوني، والكنز الذي دفناه هو لكم»

ما إن أتم المنصور كلماته حتى انبرى كل منهم ليبدي رأيه في مشهد لو كان الصخر يعقل لهتف لهم وصفق.

رافـع: «أي كنز أيها الزعيم؟ الكنـز الحقيقي الذي حزته في حياتي، هو ذلك الأخ الأكبر الذي لم يشـاركني رحم أمي، فكيـف أفارقه لأي سـبب كان؟» ثم أقبل رافـع على المنصور يحتضنه بقوة وحنان معًا.

وقف إبراهيم تلقاء وجه زعيمه وهو يبتسـم قائلًا: أتظن أن عمـلي قـد دام معك طـوال هذه السـنين من أجـل المال يا

منصور؟ لم تكن أول زعيم أعمل معه، لكنني رأيت منك ما يجعلني أتمسك بك مهما طالت بي الحياة.

صمت برهة ثم نظر في عيني المنصور وهو يقول: «رأيت هذا الإنسان الذي تحاول جاهدًا إخفاءه، وذلك الإنسان الذي لم أعرف مثله يومًا ما في حياة الدماء والجريمة التي نشأت فيها منذ نعومة أظفاري» ثم انكب على المنصور يعانقه بينما كان الأخير يخفي تأثره.

«ومن يصفعني ويحمر خديَّ إذا لو فارقتنا يا صاحب اليد الطائشة؟».

انفجر الجميع في الضحك لكلمات سعد الذي أقبل على زعيمه معانقا، ثم خلَّى سبيله وقد تبدلت هيئته وهو ينظر إلى وجه المنصور قائلًا في خفوت مؤثر: أنا معك ولو خضت بي البحر بلا سفينة.

اقترب سهم بدوره ليواجه المنصور ويعانقه قبل أن يقول: قضيتك هي قضيتي يا زعيم.

«نحيا سويًا ونموت سويًا، هذا عهدنا، لو كنت نسيته فلن ننساه يا منصور».

كان المتكلـم هـو عبد الملك الذي قبل رأسـه المنصور ثم عانقه، بينما هز الأخير رأسه مبتسمًا في إشارة إلى أن ذلك العهد لم يغب عنه يومًا ما.

وأمـا جابـر فقـد وقف في حـزم وهـو يقـول: دلني على هؤلاء القتلة حتى أشفي غليلك منهم يا منصور، سيوفنا قبل سيفك.

هم عطاء بأن يأخذ دوره في الحديث إلا أن جابر لم يمهله إذ قال: على رسلك يا عطاء، لقد نسيت أمرًا هامًّا.

وقبـل أن يسـأل الجميـع جابر أقبـل يعانق المنصـور، ثم يقول: نسيت أن أعانق أخي.

ضحـك الجميـع بمـن فيهـم المنصـور الـذي كان يتابع الموقف بكيانه دون أن يتفوه بكلمة وكأنه لا يجد ما يعبر به عما يجيش في صدره تجاه هؤلاء الرجال.

اقـترب عطـاء من المنصـور، وهـم بالحديـث، إلا أنه مط شـفتيه وقلب كفيه قائلًا: لا أجد شيئًا أقوله، لم يتركوا لي شيئًا يقـال، ويكفينـي هذا، فأقبل عـلى زعيمه يعانقه بقوة، وسـط ضحكات تعالت من رفقائه.

«وأنت يا أيوب، ألا ترغب في أن تقول شيئًا».

نطق بها المنصور وهو يبتسم للعبد في ود، ثم تابع: لكن بلا دموع يا أيوب

ضحك أيوب وهو يقول: حقيقة يا سيدي لم أفكر في شيء من ذلك لأنني ظننت أن سيدي المنصور يعلم أن ذلك العبد لم يكن ليفكر في يوم من الأيام أن يترك سيده الذي جعله يشعر بآدميته ويعامله كالسادة.

قالها ثم فاضت دموعه وهو ينكب على يد المنصور يقبلها ثم يستطرد: أنت لي كل شيء في حياتي.

داعبه المنصور بضربة خفيفة على رأسه وهو يقول: ألم أقل بلا دموع أيها العبد؟

ضحك الجميع، في الوقت الذي فتح المنصور ذراعيه لرجاله فتسابقوا إليه كما يهفو الصبيان لوالدهم لدى وصوله البيت، ثم بسط كفه لتتراص أكفهم جميعا، ليعتدل المنصور بعدها وهو يقول في حزم: لنبدأ العمل يا رجال هل أنتم جاهزون؟ أجابوه هاتفين: جاهزون يا زعيم.

بـدأ المنصور يـشرح لهم خطـة العمل والتي تبـدأ بجمع كل المعلومات الممكنة، بداية من الاسـم الذي ذكر جار أحمد أنه سـمع أحد الفرسـان ينطق به عندما تركوا الفتى عند بيته، والكلـمات التي يهذي بها أحمد لتحليلها، بالإضافة إلى فحص آثـار التعذيب في جسـده، لتبـدأ المهمة الجديـدة، لكنها مهمة مختلفة.



يوم القصاص

على غير المتوقع، لم يطل بحث رجال المنصور، والذين تمرسوا طويلا على جمع المعلومات بصورة تفوق مهارات الشرطة ذاتها، لقد أمعنوا النظر في الكلمات التي يهذي بها أحمد أمثال: «لست أنا، الورقة سيئة، الرحمة، أريد العودة لأمي».

كما أن الرجال تفحصوا جيدا علامات التعذيب في جسد أحمد:» الأظافر المنزوعة، الحرق بالنار، ضرب السياط»، فقادتهم تلك المعلومات إلى أن الفاعل لا يخرج عن فعل العصابات أو الشرطة، إلا أنهم استبعدوا الاحتمال الأول حيث أن أحمد ليس من أصحاب الأموال، وفي الوقت نفسه لا يعادي أحدًا كما هو معروف عنه.

وبقي الاحتمال الثاني هو الأقرب نظرا لطريقة التعذيب التي يعلمونها جيدًا عن الشرطة والتي ظهرت آثارها على جسد الفتى.

وكان من اليسير عليهم بعد ذلك أن يبحثوا في صفوف الشرطة عن اسم «بدر»، ليجدوا أن اثنين منهم يحملان ذات

الاسم، إلا أن أحدهما كان شابا فتيا، والآخر رجل كبير السن أوشك على ترك مهنته، لتنتهي مهمة العثور عليه في يومين اثنين بعد عمل دؤوب وصلوا ليله بنهاره.

وبعد أن قامت المجموعة باختطاف الشرطي بدر واقتادوه إلى الجبل حيث زعيمهم المنصور، لم يكن أمرًا عسيرًا أن ينتزعوا منه اعترافا بكل ما حدث، ليبدأ المنصور في رسم خطته بسرعة وإحكام مع فريقه، مسترشدين باعترافات الشرطي بدر في تحديد مقر قائد الشرطة جعفر، وتعداد وتمركز الحراس حوله.

المنصور: والآن بعد أن علم كل منكم دوره، فأود التأكيد على ألا يبقى أحد منكم في المنطقة بعد أداء دوره، وإن حدث لي مكروه ولم أرجع إليكم فلتغادروا دمشق بأسرها.

جابر: كيف تأمرنا بهذا يا منصور؟

«هذا أمر من زعيمك يا جابر أفهمت؟»

قالها المنصور في حسم قطع الطمع لديهم جميعا في أن يراجعوا المنصور، فأومأوا برؤوسهم على مضض.

التفت المنصور إلى أيوب وهو يقول: هذا الشرطي سوف يبقى أسيرا لديك، إن حاول فك قيوده فاضرب عنقه بذلك السيف، وانتظر حتى آتيك بنفسي، صمت برهة ثم استطرد: أو يأتيك الرجال، وحينئذ فارحل معهم.

نظر أيوب إلى سيده نظرة طفل يخشى فراق أمه، إلا أنه رسم على وجهه ابتسامة مصطنعة وهو يقول: ستأتي يا سيدي، ستعود إن شاء الله.

ولم تكد تمر ساعة بعد نزول الفريق من الجبل، حتى كان ستة من الصعاليك السكارى أمام مقر قائد الشرطة وقد علا صياحهم وبدا أن ثمة شجار دب بينهم على مال.

قال أحدهم وهو يترنح: قلت أن هذا المال لي ولأخي وحدنا.

وقال آخر وهو يؤدي ذات الحركات: نعم إنه لنا وحدنا، اغربوا عنا.

وأجابها ثالث وهو يتكلم بلسان متثاقل: الويل لكما إن لم نقتسم هذا المال جميعنا.

فأيده رابع: نعم، المال لنا جميعًا.

وتدخل خامسهم قائلًا: ليس لكما، وليس للجميع، بل لي ولصديقي هذا وحدنا

وقال الأخير: نعم إنه من حقنا نحن.

علا صراخهم وهم يقتتلون قتالا يدويا عنيفا، جعل الحراس يتركون مواقعهم لفض الاشتباك، في الوقت الذي كان المنصور يترقب تلك الفرصة ليتسلل بخفة إلى المبنى بعد أن أدى ستة من رجاله دورهم بنجاح، بينما كانت مهمة عطاء أن ينتظر المنصور ومعه فرسه في مكان مستتر قرب مقر رئيس الشرطة.

وفي أثناء ذلك كان جعفر قائد الشرطة قد استلقى على فراشه وقد نزع عنه ملابسه الرسمية، ووضع أحد رجليه على الأخرى ويهزها في توتر وقد استغرق في التفكير في أوضاعه الراهنة بعد أن اعتقل أربعة من الشباب الأبرياء ليضحي بهم من أجل مآربه.

لم يلتفت جعفر إلى ذلك الفارس الملثم الذي تسلل إليه من الخلف شاهرًا سيفه، فما إن أحس قائد الشرطة بحركة

المنصور حتى هم بالالتفات لولا تلك الضربة التي نزلت على رأسه بمقبض السيف وأفقدته وعيه.

لم يمض الكثير من الوقت على استعادة جعفر وعيه، ليجد نصل السيف على عنقه، فنظر في هلع إلى المنصور، والذي لم يمهله لأن يسأل عن شيء إذ قال: إياك وأن تتحرك أو تصدر ضجيجًا، فقبل أن تكمل الكلمة سوف تكون رأسك عند قدمك.

هز جعفر رأسه في توتر، فاستطرد المنصور في غضب: أي شيطان أنت؟ لو كان هناك شيء أبشع من القتل لفعلته معك أيها الوغد.

نظر جعفر في فزع متسائلًا: يبدو أنك قصدت الشخص الخطأ يا سيدي، فهذه أول مرة ألتقي بك في حياتي، لا ريب أنك تريد رجلًا آخر.

المنصور: بل أعني جعفر قائد الشرطة الوغد، الذي يقتل الأحلام، ويسلب الناس فرحتهم، جعفر الذي ظل يعذب شابًا صالحًا أرق من النسيم حتى انتزع منه عقله وصيره هملًا يقضي حاجته على نفسه، جعفر الذي كان سببًا في موت

عجوز حسرة على ولدها الوحيد الذي لم يكن لديها سواه في الدنيا، وهو جعفر الذي سيدفع ثمن جرائمه الساعة.

ارتسمت أقسى علامات الرعب على وجه قائد الشرطة وهو يستمع إلى تلك الكلمات النارية التي يطلقها المنصور، فجعل يستجدي الأخير في أن يدعه وشأنه.

المنصور وهو يقول بصوت منخفض لم يمنع ملامح الغضب من أن ترتسم على وجهه: ستموت على أي حال أيها الوغد، ولكنه سؤال واحد سوف تجيبني عليه: لماذا فعلت ما فعلت مع الفتى البرئ؟ لماذا كل هذا الإجرام الذي مارسته معه؟

رفع المنصور رأسه إلى أعلى في غضب وهو يريد أن يصرخ فتمالك نفسه وهو يتذكر مشهد أحمد ووفاة والدته: ما أكثركم أيها الأوغاد في هذه الحياة.

لحظات معدودة غابت فيها عينا المنصور عن قائد الشرطة، لم يدر وقتها أن يد جعفر قد امتدت بسرعة البرق إلى ما تحت الوسادة، ليفاجأ المنصور بشيء حاد يمزق ذراعه

وتنزلق قدماه مع تلك المباغتة ويسقط أرضًا وقد ترك سيفه من يده.

ولم يمهله قائد الشرطة ليستوعب ما حدث، فالتقط السيف بسرعة وهو يضعه على رقبة المنصور ويقول وقد اتسعت عيناه جدلا: يا لك من أحمق، أتظن أنك تنال من قائد شرطة دمشق؟ والآن وقد تبدل الموقف، سوف تموت على أي حال بسيفك، لكن قبلها سوف أجيبك على سؤالك.

ضحك وهو يقول في شماتة: حتى تموت وأنت مستريح البال عندما تعرف ذلك السر الذي لا يعرفه حتى رجالي بالخارج، لذلك لن أناديهم الآن، لأنني سأطلعك على ما لم يعرفه الجميع قبل أن أقتلك.

كان المنصور يوقف نزف الجرح الغائر في ذراعه بيده الأخرى وهو يستمع بدهشة لحديث جعفر إذ يقول بنشوة عارمة زادت من اتساع حدقتيه وقد وضع نصل سيفه أمام وجه المنصور: الأمر بعيد عن أحمد تمامًا، فما هو إلا وسيلة لإحداث فتن واضطرابات عندما يصطدم الملك الأشرف

بالعلماء البارزين أمثال ابن سلام والصالحي، بعد أن يثبت تورطها في التحريض على قتل عدوهما الصوفي.

لم يستوعب المنصور الكلام بتمامه، إلا أن عبارات خطرة قد أصابته بدهشة عارمة أطلقها قائد الشرطة: حتما تريد معرفة السبب، إنه ثأر.

استطرد قبل أن يسأله المنصور: ثأر مع دولة بني أيوب.

قالها وقد امتلأ وجهه حنقا وغيظا وهو يتابع: لن أنسى أبدًا ما حييت أن جدهم صلاح الدين قد أسقط دولتنا في مصر، لن يهدأ لي بال حتى أقوض ملكهم في دمشق، كما يفعل غيري من العبيديين في كل مكان، لن أدعهم ينعمون بملك هنا أبدًا.

قالها وهو يكرر خطأ المنصور ذاته ويرفع رأسه إلى أعلى غيظًا، ليركل المنصور وهو في وضع الرقود يد جعفر التي يمسك بها السيف فيطيح به.

تناسى المنصور جرح النازف ووثب كالفهد لتغوص قبضته في معدة غريمه والذي صرخ بأعلى صوته: يا حراس.

صرخ جعفر بتلك الكلمة، لكنه لم يعاودها، حيث كان السيف في يد المنصور بسرعة البرق، يشق الهواء إلى رقبة قائد الشرطة ليفصل رأسه عن جسده.

اقتحم ثلاثة من الحراس إثر صراخ سيدهم لتصطدم أعينهم بذلك الرأس الذي استقر على الأرض، لينتقل بصرهم إلى ذلك الجسد الذي يتشحط بالدماء، ثم إلى ذلك الفارس الذي أمسك بسيفه متأهبًا للقتال وقد برقت عيناه بالحزم.

لقد جعل المشهد الحراس يستشيطون غضبًا وهم يندفعون صوب المنصور بصيحات قتالية، غير أن الأخير كان يدرك قبلها أن الغلبة ستكون لأعدائه، حيث يفوقونه عددا بينما جرحه يثعب دمًا.

ولذلك انتظر حتى بدأوا بالاندفاع صوبه، حتى أكفأ عمودًا ثقيلًا من الرخام في طريقهم ليتعثروا فيه، في ذات اللحظة التي نزل بسيفه على المصباح المعلق بجدران الغرفة لتغرق في ظلام دامس.

كان المنصور قد حدد مكان الشرفة قبل أن يطفأ المصباح، ليقفز منها ويهوي من ارتفاع خمسة أمتار قبل أن تستقر قدماه أرضًا وسط صراخ وصياح الحراس في فناء المقر.

هم المنصور بالنهوض بعد أن التوى كاحله، إلا أنه قد وجد الحراس يحيطون به من كل صوب شاهرين سيوفهم، فاستحث عزمه لأن يقاتل حتى الموت رافضًا فكرة الاستسلام، لكن دماءه التي تنزف بغزارة قد أصابته بالإعياء فخارت قواه ومادت به الأرض ليقع أسيرًا في أيديهم، وينتظر مصيره الذي توقعه من قبل وهو يجازف بتنفيذ تلك المهمة.

لم يدر المنصور حتمًا، ولا أولئك الحراس في هذا الموقف أن شخصًا ما كان يراقبهم بكل أسى من فتحة من سور الفناء، لقد كان عطاء والذي لم يمتثل لأوامر زعيمه ويلوذ بالفرار، لقد حاول حقًّا، لكنه لم يتمالك نفسه وهو يرى المنصور يسقط أرضًا فأقدم على فعل جنوني.

شهر عطاء سيفه واخترق باب الفناء حيث كان الحراس يحملون المنصور بعدما فقد وعيه، فما راعهم غير صرخة مدوية أطلقها عطاء بوجه ارتسمت عليه كل معاني

السخط والغضب، ليطيح بسيفه يمينًا وشمالًا ليقتل اثنين من الحراس.

وما كاد عطاء يهوي بسيفه على ثالث حتى عاجله أحد الرماة من على مسافة عشرين مترا بسهم استقر في ظهره.

أوشك عطاء على السقوط أرضًا إلا أنه صرخ في وجوه الحراس أمامه دون أن يلتفت لرامي السهم، الأمر الذي أصابهم بالدهشة فتصلبت أقدامهم في الأرض ينتظرون ذلك الفارس وهو يتقدم إليهم ببطء وهو يطلق صيحات مدوية.

برك عطاء بركبته اليمنى على الأرض عندما رشق الرامي سهمًا آخر في خلفية كتفه الأيسر، إلا أنه قاوم ليستقيم ظهره مرة أخرى وهو يزلزل المكان بصيحته، قبل أن يستقر سهم ثالث في رقبته أرداه أرضًا.

كان عطاء قد ثبت نظره وهو يسقط على وجهه صوب زعيمه على أضواء المشاعل التي امتلأ بها الفناء، بل لم يفارق النظر إليه بعدها، وظل يزحف تجاه سيده وقد روت دماؤه التراب.

كان المشـهد غريبًا على القوم، فظلوا ينظرون دون تفكير في ذلك الذي يلفظ أنفاسـه الأخيرة، ويزحف في تهالك ويده تشـير إلى المنصـور، حتى ارتخت في بطء عـلى الأرض بعد أن فارق صاحبها الحياة.



حياة أو مـوت

جلس رجال المنصور في الغار وقد بدا عليهم التوتر وهم ينتظـرون مقدم عبـد الملك، والـذي نزل إلى المدينة يستطلع الأخبار عن المنصور وعطاء.

وحانت التفاتة من جابر إلى الشرطي بدر، والذي جلس على الأرض مقيدًا فخاطبه قائلًا: يبدو أنك ستظل معنا لفترة طويلة.

وقبـل أن يطالع جابر أثر الكلمة على وجه الشرطي، أثار انتباهه النهوض المفاجئ لزملائه، وهم يستقبلون عبد الملك لـدى دخوله الغار وهو ينقل قدما بعـد قدم في بطء وتهالك، فلـم يبذل رفقاؤه جهـدًا في أن يتبينوا ذلك الحزن البالغ على قسماته.

كلهـم قد نظر إليه في صمت، يتلهفون لسماع أخبار عن المنصـور وعطـاء، في الوقت ذاتـه يتهيبون أن ينطق لسـانه بما قرأوه قبلها على ملامحه.

«الأخبـار صحيحـة، المنصـور وقـع في الأسر جريحًـا، وعطاء...

توقف لدى ذكر عطاء، فانتحب ثم استطرد: قد مات.

وكأن الزمان توقف على هيئات الرفاق بعد أن روعتهم الفاجعة، فمنهم من أسند ظهره للصخر، ومنهم من برك على ركبتيه، وبعضهم جلس القرفصاء وطأطأ رأسه أرضًا، دون أن يتكلم أحدهم بكلمة واحدة.

ظل المشهد أسير الصمت الذي خيم على الجميع من هول الصدمة، إلا أن واحدا منهم شق السكون بصرخة مدوية: سيدي المنصووووووووور، سيدي المنصووووووووور

لقد كان العبد أيوب يصرخ لفراق سيده، وما أسكنته سوى يد جابر تربت على كتفه، فاكتفى بالنحيب المكتوم والدموع التي شقت طريقها على وجنتيه.

قلب سعد كفيه في بطء وذهول وهو يقول كأنه يهذي: هل انتهت أيامنا؟ انتهت عائلتنا؟ في يوم واحد نفقد اثنين من أحبتنا؟ هل هذا حلم؟

ظل يدور على رفقائه ويسألهم: أخبروني، أهو حلم مزعج نستفيق منه عما قليل؟

لم يجبه أحد منهم، بل استأنف الجميع صمتهم مرة أخرى، قبل أن يقول عبد الملك: حزني على أسر المنصور كبير، لكن حزني على فراق عطاء أشد، نطق بهذه العبارة ثم استعبر وخنقته العبرة، ليقول إبراهيم من بعده بكل أسى: أود أن أذكركم يا رفاق بأن المنصور قد أمرنا إن حدث له مكروه بأن...

لم يتم الرجل عبارته حيث صرخ فيه الجميع بعبارات مختلفة: لا، لن نترك المنصور ونهرب، ومنذ متى كنا جبناء؟ نعيش سويًّا أن نموت سويًّا.

هز إبراهيم رأسه قائلًا: حسنًا هذا هو القول لدي أيضًا، وأرى كذلك أن نخرج من أحزاننا على فراق عطاء، ونفكر في أمر المنصور، فهو ما زال على قيد الحياة، ومادام حيا فلا ينبغي لنا أن نفقد الأمل في نستعيده.

تجمع حوله الجميع في حماس وهم يقولون: نعم، لابد وأن نستعيد الزعيم.

سهم: ولكن كيف يا رفاق؟ كيف نخلصه من أسره؟ لقد وقع بين فكي الأسد.

أجـاب رافـع في حزم: حسـنًا، لو كان بين فكي الأسـد، سنحطمهما له، ونخرج المنصور سالمًا.

جابر: بالنسـبة لي، سـأعود ومعي المنصـور، أو لا أعود، إنها قضية حياة أو موت.

هتـف رفقاؤه بعـد أن ألهبت الكلمة حماسـتهم: نعم كلنا هـذا الرجـل، سـنعود ومعنـا المنصـور أو لا نعـود، حيـاة أو موت.



خليفة الشـــر

دخل رئيس الشرطة الجديد «بشير» على الوزير الذي بدا متجهمًا قلقًا، كيف لا وقد ارتكبت هذه الجريمة التي صارت حديث المدينة في غياب الملك الأشرف، فلا ريب أن الأمر سوف يختزل رصيده في حسن إدارة البلاد لدى الملك.

الوزير: هل أصدر القاضي حكما على ذلك الغريب القاتل؟

بشير: نعم يا سيدي، لقد حوكم اليوم بعدما تأكدنا من أنه على وشك التعافي من جرحه الغائر.

الوزير: وبم حكم القاضي؟

بشير: القتل يا مولاي، لقد تبين لرجالي أن ذلك الغريب قاتل مأجور وقاطع طريق من حلب، واقترف العديد من جرائم القتل والسطو وقطع الطريق، وقد ضبط معه أموال طائلة سرقها من القائد جعفر بعدما أجهز عليه وهو يقاومه.

حك الوزير ذقنه في حيرة وهو يقول: أو ما وجد أحدًا يسطو عليه سوى رئيس شرطة البلاد؟

بشير: سيدي الوزير، هذا الرجل ذئب في صورة بشرية، وتاريخه كما علمنا ملطخ بالدماء والسطو على الأثرياء والوجهاء وقتلهم أحيانًا، إنه متجرد من بشريته.

الوزير: وماذا عن الأربعة رجال الذين خططوا لقتل ابن عربي؟

بشير: لقد اعترفوا يا مولاي بذلك، وثبت لدي أنهم عزموا على اغتيال الشيخ بمحض إرادتهم دون تحريض من أحد.

الوزير وقد تبسم مستبشرًا: حمدًا لله، كنت قلقًا من أن يكون أحد من العلماء قد حرضهم على ذلك، حمدًا لله.

بشير في خبث: نعم يا مولاي، وسوف يحكم عليهم القاضي غدًا إن شاء الله.

الوزير: وهل خرج الشيخ ابن عربي من محبسه؟

بشير: لقد رفض يا مولاي الخروج حتى بعد أن أخبرته بأنه قد أصبح آمنًا، يريد أن يقضي وقتًا في أطول في خلوته للعبادة.

انفجر الوزير في الضحك وهو يضرب كفا بآخر قائلًا: يا لهذا الشيخ غريب الأطوار.

ثم عدّل الوزير من هيئته بعدم استشعر الحرج من انفلات وكاء وقاره فاستطرد: دعه على رغبته يا بشير، ولْتلبوا كل مطالبه وأرسل أوامري بذلك إلى قائد حراس السجن.

بشير: أمر مولانا الوزير.

هم قائد الشرطة الجديد بالانصراف لولا أن الوزير استوقفه قائلًا: لقد وليتك أمر الشرطة يا بشير لأنك كنت الساعد الأيمن لجعفر، وهأنت أصبحت خليفته، فأريدك أن تحذو حذوه في إرساء الأمن في البلاد.

بشير: لن تندم على اختيارك يا سيدي

وما إن خرج بشير من بلاط الوزير حتى ذهب إلى قاضي البلاد عدنان، والذي أصدر حكمًا بالإعدام على المنصور دون محاكمة استجابة لأمر قائد الشرطة الجديد بشير.

القاضي: عجيب أمرك يا قائد الشرطة، لقد نسفت ما خطط له جعفر من قبل، وبفعلتك هذه قد برأت الصالحي وابن سلام، لماذا أفسدت خطة جعفر.

بشـير وقد أمسـك بتلابيـب عدنان في غيـظ: ويحك أيها القاضي الأحمق، إياك وإن ترى لنفسـك حقًّا في أن تراجعني، أفهمت؟

ارتبـك القاضي عدنان وهـو يقول في خضوع بعدما دب الخوف في أوصاله: نعم فهمت يا قائد الشرطة.

أرسـله بشـير وهو يشيح عنه قائلًا: لقـد ارتكب جعفر حماقـة كبرى، ولم يحسـب للأمر حسـابه، حـصر الوصول إلى الهدف في وسـيلة واحدة، وهـي مع ذلك خطرة، فماذا لو كان الوزير قد علم بقصة الشـاب أحمد، وماذا لو تحقق الوزير من براءة عبد العزيز والصالحي بعدما ما ادعاه جعفر؟

برقـت عينـا القاضي وقـد لامس الكلام عقلـه ومنطقه، فاسـتطرد بشـير: ولهذا أحببت أن أغلق هذه القضية وأسدل النهايـة بمحاكمـة عادية للسـجناء الأربعة يقـوم بها القاضي الأبله وهو أنت، دون الزج بالصالحي وابن سلام.

هـمَّ القـاضي بالحديـث لـولا أن بشـير لم يمهلـه إذ قال: وأمـا هدفنا فهو باق مـا بقيت حياتنا، لكن لـكل مقام مقال، والوسائل عديدة.

مط كلمتـه الأخيرة بحركة مسرحية وهو يبتسـم ويلوح بيـده، ما جعـل عدنان يعلق عـلى كلماته قائـلًا في جزل: أنت حقًّـا داهيـة زمانك، يبدو أنني لم أقدر لعقلـك قدره من قبل، أنت حقًّا داهية.

شـد بشـير قامته في حزم وهو يقول: اسـتعد أيها القاضي للحكم على السجناء الأربعة غدًا، وليكن السجن خمسة عشر عاما.

هـز القـاضي رأسـه مبتسـمًا: نعـم أيهـا الزعيـم الجديـد سأفعل.



النجم الآفـل

دخـل رئيس الحـرس «شـهاب» إلى غرفة السـجن التي يقبـع فيهـا ابن عربي، وألقـى عليه التحية في إجـلال وتوقير، ليرد الآخر عليه تحيته مبتسمًا ولمّا يغادر فراشه، ليتجاذبا سويًا أطراف الحديث الذي بدا محل اهتمام كبير لدى الشيخ

ابـن عربي وقد بدا عليه الشـغف: ولكـن ألا ترى أن أمر هذا الغريب محير يا شهاب؟

شهاب: كيف يا شيخ؟

مـط ابن عربي شـفتيه ثـم أعادهما لطبيعتهـما وهو يقول: مـا الذي يدفع ذلك القاتـل إلى أن يتجه لسرقة قائد الشرطة؟ الأثرياء كثر، فلم تخير جعفر؟

شـهاب وهو يقلـب كفيه: أتفق معك فيـما تقول، لكنهم يقولون أن الرجل قاتل مأجور وقاطع طريق واسـع الشـهرة في حلـب، ويقولون أنـه أيضًا لا يهاب الموت ذاته، فلا عجب من أن يتجرأ ليسرق رئيس الشرطة.

ابن عربي وقد مال تجاه شـهاب مبتسمًا: هل لي بأن أطلب منك أمرًا ما؟

شهاب: السمع والطاعة لمولانا الشيخ، سل ما بدا لك، فقائد الشرطة الجديد أعطاني أوامره المشددة بأن ألبي كل ما تطلبه مني، وأخبرني أنها أوامر من وزير البلاد رأسًا.

اتسعت ابتسامة ابن عربي وهو يهز رأسه قائلًا: متى سينفذ حكم الإعدام في ذلك القاتل الحلبي؟

رئيس الحرس: بعد غد في أول الصباح وهنا في ساحة الإعدام بالسجن.

ابن عربي: حسنًا، ومتى تأتون به إلى السجن؟

أجابه شهاب وهو ينظر في بلاهة إلى الشيخ وقد أصابته الدهشة: لست أفهم يا مولانا الشيخ ما جدوى هذه الأسئلة، وعلى كل حال فإنه سوف يأتي به غدًا صباحًا إن شاء الله.

كان ابن عربي قد بدا عليه الفضول والشغف وهو يستمع إلى إجابات شهاب، فتابع بالقول: حسنًا يا شهاب، إليك طلبي: أريد أن يقضي هذا الرجل ليلته الأخيرة هنا، معي.

انتفض رئيس الحرس كالملدوغ وهو يجيب بصوت مرتفع: ماذا تقول يا شيخ؟ تريد أن يبيت هذا القاتل المجرم معك في ذات الغرفة؟ هل أنت مدرك لما تقوله؟

ابـن عربي وهو يهـدئ من روع شـهاب: اهـدأ يا رجل، ولتفكـر في الأمر بالمنطـق والعقل، ماذا عسـاه أن يفعل ذلك القاتل لشـيخ طاعن في السـن ليس بينهما سابق معرفه؟ أترى أن ثمة ما يدفعه لإيذائه؟

شهاب وقد وضع سبابته على ملتقى شفتيه رافعا حاجبيه لأعـلى كأن الـكلام قد وجد صـداه في عقله، فأجابـه: نعم يا سيدي لديك حق في أنه ليس هناك ما يدفعه لإيذائك، ولكن ماذا عن قائد الشرطة الجديد؟

ابن عربي في خبث: ألم يأمرك بتلبية جميع ما أطلبه منك؟

هز شـهاب رأسـه قائلًا: بلى يا شـيخ، قد فعل، وسـألبي أمـرك، فما هي إلا ليلة واحدة ثم نقتاده في الصباح إلى سـاحة الإعدام، ولكن هل لي أن أسألك عن سبب هذه الرغبة؟

ابـن عربي وقد اتسـعت ابتسـامته وهو يربـت على كتف رئيـس الحرس: الفضـول يا ولدي، قالها ثـم ولى محدثه ظهره وهو يستطرد: أريد أن ألتقي بذلك القاتل الغريب، وإنه لشيء رائع أن أقضي ليلة مع رجل يناديه الموت حتى الصباح.

وفي تلـك اللحظات، كان الشـيخ عبد العزيز بن سـلام يجلس مع الشـيخ الصالحي في داره، وجعل ينظر إلى الشـاب أحمـد وهـو يجلـس في الفنـاء منفـردًا مـا بـين شرود الذهـن والحركات الغريبة التي صارت لازمة له.

«مسكين ذلك الفتى».

قالها ابن سـلام وهو يهز رأسه في أسى، ليبادله الصالحي ذات الحركـة وهـو يقول: لا حول ولا قـوة إلا بالله، لقد كان هذا الفتى من أنجب تلامذتي وأعظمهم خلقًا، وسـبحان الله العظيـم، ينقلـب إلى ذلك الحال بين عشية وضحاها، وإنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كانت مصيبتي فيه عظيمة.

ابن سلام: الحمد لله على كل حال، كل شيء عنده بمقدار، أسأل الله له الشفاء والعافية، ولك المثوبة والجزاء العظيم على كفالتك إياه يا شيخ.

صمـت عبـد العزيز بـن سـلام برهة ثـم اسـتطرد: لقد أساءني ما سمعت عن ذلك الشاب منصور، لم أكن لأتخيل أن ذلك الرجل الشفوق رحيم القلب، لم يكن سوى لصًا وقاتلًا مأجورًا.

نظر الصالحي إلى الأفق كالذي يفرغ في مرآه حيرته ليقول: وإلى الآن يا شيخ لا أصدق أن المنصور ذهب ليقتل رئيس الشرطة من أجل المال، قلبي يحدثني أن الأمر يتعلق بأحمد.

اتسعت عينا ابن سلام وهو يقول: أتعنى أن رئيس الشرطة هو الذي فعل ذلك بـ أحمد؟ ولكن لماذا؟ أحمد شاب مستقيم على الخير.

قلب الصالحي كفيه في بطء ينم عن حيرته وهو يجيب جليسه: لا أدري يا شيخ، لكنه مجرد شعور ينتابني، خاصة وقد لمست في المنصور هذا نقاء القلب والرحمة، وكذا رأيت مدى حزنه على ما أصاب أحمد ووالدته، لكنني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أجزم بشيء.

ابن سلام: لا عليك يا أبا عمرو، الحقيقة لن تموت، ولا ريب في أن القصاص العادل سيحيق بالظالم.

هز الصالحي رأسه موافقًا وهو يقول: نعم يا شيخ، ولكن هذا الفتى الغريب لا أستطيع إلى الآن أن أنظر إليه كمجرم،

حتى بعد أن كشفت سوابقه الإجرامية، أشعر أن فيه خيرًا عظيمًا.

ابن سلام: نفس الشعور ينتابني، أسأل الله أن يتوب عليه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام، لعل الله أن يغفر له جرمه.

«آمين آمين».

أمّن الصالحي على دعاء الشيخ وهو ينظر إلى النجوم ثم تابع: لقد سطع ذلك الفتى فجأة كنجم في السماء سرعان ما أفل، سرعان ما أفل.



الشيخ والقاتل المأجور

فتحت بوابة السجن ليدلف من خلالها حشد من الفرسان يقتادون المنصور وقد كبلت كلتا يديه إلى أسفل قدميه بالحديد، حتى ليخيل للرائي أن لدى الرجل قدرة على فلّ الحديد من تلك الاحتياطات المفرطة التي اتخذها الحراس وهم يسيرون بالمنصور.

كانت الشمس قد مالت للغروب وأوشك الأفق البعيد على ابتلاعها، فحانت من المنصور التفاتة إليها، وكأنه يطالع آخر مشهد لغروبها في حياته، فترك جسده للحراس يوجهونه، بينما كان بصره لا يفارق الشمس لحظات أفولها المهيب.

ولم ينتزع المنصور من تلك الجذبة سوى توقف الحراس عند باب إحدى غرف السجن التي يواجه بابها العراء، ليفتح بابها، ويدفع الحراس المنصور في قوة إلى الداخل ويغلقون الباب على عجل ووجل، وكأن تلك الأغلال لا تكفي لأن تبعث فيهم الأمان.

«جبناء، جبناء».



قالها المنصور في غضب جراء تلك الدفعة التي كادت أن تكفئه على وجهه، وجلس مسندا ظهره إلى حائط الحجرة، وهو يعالج أمرا لم يتطرق إليه خياله طوال سنوات الشقاء، إنه ذلك الموت الذي يقرع بأجراسه كيان المنصور، فلطالما رآه بعيدا رغم معانقة الأخطار في كل شروق وغروب، لكنه الآن يشم رائحته، في ذلك السكون الذي يحيك بدايات المساء.

انطلقت من المنصور ضحكة مدوية تردد صداها بين جدران الحجرة، لم يكن لها ما يبررها سوى أن الرجل يفرغ شحنة من الانفعالات اختزنتها نفسه الهائمة، فخاطب نفسه بصوت مسموع قائلًا: كنت ستموت على أي حال يا منصور، رمية بسهم أو ضربة بسيف أو طعنة برمح، كانت كفيلة بالإجهاز عليك.

صمت برهة ثم ارتسمت علامات الحزت على قسماته وهو يقول: ترى كيف أنتما يا أبواي الآن؟ وكيف ستستقبلان خبر موتي؟

أجاب نفسه بنفسه: كنت لهما كالميت يا منصور، سيستريح منك أبوك، وستقطع أمك الطمع في أن تعود إليها.

«هون على نفسك يا ولدي».

قالها ابن عربي الذي يرقد على فراشه في زاوية الحجرة، حيث لم يلتفت المنصور إليه أثناء دخوله، فلقد شغلته قفزات الخواطر فيما استدبر وفيما سيستقبل، فقطب جبينه وهو يخاطب صاحب الصوت: كنت أظن أنني هنا بمفردي.

ابتسم ابن عربي وهو ينهض من فراشه ويتجه ناحية المنصور قائلًا: الأمر واحد يا ولدي، أنت وحدك بين الناس، وأنت في زحام ولو كنت وحدك.

زوى المنصور حاجبيه وهو يقول في دهشة: ما هذا الهذيان أيها الشيخ؟ خلتك مع شيبتك هذه أعقل من ذلك.

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول: لا عليك يا ولدي، لا عليك، أخبرني أولًا من أنت؟ وما جريمتك التي أوصلتك إلى تلك الحال؟

انفجر المنصور في غضب وكأنه يقذف حمم البركان في وجه الشيخ بصوته الجهوري: وما شأنك أنت أيها الشيخ الفضولي الأخرق، أغلق فمك وإلا قطعت لسانك.

كاد قلب الشيخ أن ينخلع من مكانه وهو يرى تلك الملامح القاسية، ففارقته ابتسامته هذه المرة قائلًا بصوت خافت وهو يواجه بكفيه المنصور كالذي يهدئ من روعه: كما تحب يا رجل، فقط أردت أن أعيرك سمعي تسكب فيه مما يجيش بصدرك.

أسكنت تلك الكلمات الهادئة نفس المنصور الهادرة، فارتخت قسمات وجهه، وهو يعاود إسناد ظهره إلى الحائط، وقد نصب ركبتيه وطوقهما بذراعيه، وقال في خفوت:

« أنا المنصور بن همام، من حلب، وتم نقلي إلى السجن، صمت هنيهة ثم استطرد في أسى: لكي أقضي فيه ليلتى الأخيرة.

الشيخ وهو يقول في هدوء: لماذا يا ولدي، ما....

قاطعه المنصور قبل أن يكمل سؤاله: تهمتي هي عملي أيها الشيخ، ثم انفجر ضاحكًا وهو يقول: وحتمًا سوف تسألني عن عملي.

الشيخ: إذا لم يزعجك هذا.

المنصـور في جـزل: أنـا الـذي أبـث الرعـب في أوصال الشـجعان، وترغم أمهات حلب غلمانهن على النوم بذكري، المنصور بن همام أشهر قاطع طريق وقاتل مأجور بحلب.

عـاود المنصـور مـرة أخرة حديثـه الخافت بعد أن أسـند ظهره لجدار الحجرة: لم أدر كم من الرقاب حصدت، ولا كم من القبور أسكنت، لكنني قد أتيت إلى هنا بعد أن قتلت ذلك الوغد قائد الشرطة.

ضغـط المنصـور عـلى أضراسـه في غضـب وهـو يتلفظ بعبارتـه الأخيرة، ولفـت انتباهه أن ملامح الشـيخ قد خلت من أي تعبير خاصة وهو يسأل في فتور: جعفر؟

نظر المنصور في وجه الشيخ وكأنه يحاول قراءة ما بداخله عـن طريـق قسـمات وجهـه، إلا أنَّ بصره قـد ارتـد إليه وهو حسير، لكنه أجاب الشيخ: نعم إنه جعفر قائد الشرطة.

كانت النجوم قد تشابكت واكتنف الظلام الحجرة إلا ما كان يرسـله البدر من شـذرات أنواره الفضية، وتلك الظلال المتراقصة التي تعكسها المشاعل المنصوبة على باب السجن.

«أريد أن أصلي» نطق بها المنصور وهو يتنفس بعمق، يحاول أن يتذكر آخر مرة سجد فيها لربه، فتابع: ألا نصلي يا شيخ؟

الشيخ متبسمًا: لا بأس، سنفعلها كما فعلها غيرنا، ثم أنشد:

الرب حق والعبد حق

يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك ميت

وإن قلت رب أنى يكلف

صمت المنصور برهة وهو يحاول سبر أغوار تلك الأبيات، فسأل الشيخ: لماذا لا تتحدث بكلمات أعي معانيها يا رجل؟

اتجه الشيخ لآنية بها ماء وهو يبتسم دون كلام، وتوضأ للصلاة، فقام المنصور بدوره ليتجهز للصلاة بأغلاله التي لم ينزعها عنه الحراس ويأمر من قائدهم شهاب؛ حرصًا على حياة الشيخ من ناحية، وخوفًا من هربه من ناحية أخرى.

أدى الرجـلان صـلاة المغـرب، ولم يفارقـا مجلسـهما بعد أدائها، حيث أدركتهما العشاء فصليا جميعًا، ليستلقي المنصور بعدهـا عـلى ظهره في صمـت، وهو يحملق في سـقف الحجرة شريدًا.



النـــداء

وقـف همـام والد المنصور على شـاطئ البحـر، وقد امتد بصره إلى منتهاه حيث تلتقي السـماء بالمـاء، علّه يرى المنصور يلوح له من على متن واحدة من الفُلك الجارية.

وكأنـما برز من عـدم، ظهر ذلك القارب فجأة في وسـط البحر، لا يقل سـوى رجلًا واحدًا يجدف بعنف وهو يصارع الأمواج، ينشد الوصول إلى بر الأمان.

«أبي، أبي».

انطلق ذلك الصوت من وسـط البحر، ليصل إلى سـمع الشـيخ وكانـما حملتـه الأمـواج العاتية، إنـه المنصور، يغشـاه الموج، ويطلق نداءه كلما التقط أنفاسه.

أجابـه الوالـد الوجل وقلبه يـكاد أن ينخلع مـن مكانه: احترس يا منصور، احترس يا ولدي، تماسك.

وتهلل وجه الشـيخ مع دنو المنصور بقاربه، إلا أن الوالد البائـس سرعـان ما نظـر إلى البحر في هلع، وهـو يطالع فكي حـوت ضخم قد انفرجا، والقارب ينجذب إليه بسرعة وقوة رغم محاولة المنصور المستميتة لكي ينأى عن ذلك الخطر.

ظل المنصور يصارع الماء بمجدافيه أملًا في النجاة، بينما يطلق والده الصرخات المتالية: ابتعد يا منصور، ابتعد يا منصور، ابتعد يا منصور.

شهق الشيخ همام شهقة عظيمة وهو يستيقظ من نومه في هلع، وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسترجع ويحوقل، ما جعل أم المنصور تفزع من نومتها وهي تقول في رعب: ماذا أصابك يا همام؟

أجابها الشيخ وهو يلهث: لا شيء لا هند، خيرًا إن شاء الله، لا تكترثي، إنه مجرد حلم.

هند: هكذا في أول نومك؟ لم يمض على رقادك بعد العشاء سوى وقت قصير، لا ريب أن شيئًا ما يشغل بالك.

أجابها همام في خفوت: لا شيء يا هند، فلنخلد إلى النوم.

قالها ثم ولاها ظهره ووضع كفه تحت خده، بينما ترمقه الزوجة في أسى وتقول في نفسها: ترى ما الذي يعتمل في نفسك يا زوجي المسكين؟

وكأن همام قد سمع حديثها، فقال بصوت مبحوح يحاول التملص من حصار البكاء: اشتقت إلى المنصور يا هند.

فجرت الكلمات فيها ينابيع الأسى بمزاج الفرحة التي لم تعهدها دارهم إلا كعابر سبيل، فتلك هي المرة الأولى منذ أن فارقهم المنصور، ترى الوالد يذرف دمعة على ولده، ولم تدر في ذلك الموقف بم ترد على زوجها المكلوم، فاكتفت بأن ربتت على صدره بيدها الحانية.

فاستطرد همام وكأن أمد العشرة بينهما قد جعلته يتوقع بإحساسه كلماتها قبل أن تلدها الشفاه: إنه ولدي يا هند، ولدي برغم كل شيء، ترى كيف تقضي ليلتك يا منصور؟ على ظهر الأرض أم تحت التراب؟

شهقت أم المنصور وهي تقول: لا يا همام، لا تتفوه بتلك الكلمات، ولدنا سوف يعود إن شاء الله، سوف يعود وتقر عيناك به.

انخرط الشيخ في البكاء وهو يقول: منصور يا ولدي، يا فرحتي التي لم تتم، أين أنت يا منصور؟ الموت ينادي أباك فأدركه قبل أن يفارق الحياة.

عادت هند من جديد تسكن أنين زوجها بكفها الحاني، وهو تقول: سيعود إن شاء الله يا همام، توجه إلى ربك بالدعاء أن يرد إلينا ولدنا.

قال همام وهو يعتصر مقلتيه: ما سجدت لله سجدة غفلت فيها عن الدعاء للمنصور يا هند.

أجابته العجوز: إذا فلن يضيعه الله، أبشر بالفرج من عند الله، فلتخلد إلى النوم من جديد يا أبا المنصور.

وفي تلك الأثناء، كان عمار زوج هاجر جارة أم المنصور التي تعودها من آن لآخر وترعاها كأنها أمها، يلاعب ابنتيه زينب وفاطمة، بينما كانت الزوجة تجهز لهم أطباقا من الحلوى التي اشتراها للتو وهو قادم سفره.

سرعان ما تجمعت الأسرة الصغيرة، وهو ما زال يداعب الجاريتين، فحانت من هاجر نظرة باسمة إلى زوجها وهي تقول: ما أطيب قلبك يا عمار، توزع الشفقة والحنان على كل عرفت ومن لم تعرف، لقد منحني الله نعمة عظيمة إذ جعلك زوجًا لي.

تبسـم عمار وهو يقول: بل أنت يا زوجتي الغالية خير ما أنعم الله به علي بعد الإسلام.

جعـل الرجل يطعم بيده ابنتيه تارة وزوجته تارة أخرى، فقـال لها بغتة كالذي تذكر شيئًا ذا بال: كيف حال العم همام وخالتنا أم المنصور؟

أجابتـه هاجـر وقـد تبدلت ملامحهـا: أبو المنصـور يرقد مريضا في بيته منذ أسـبوعين، يتبادل مع الخالة الأنين والبكاء على ولدهما، وقد أغلق دكانه فما عاد يقوى على المسير.

عـمار وهو يمصمص شـفتيه: إنـا لله وإنا إليـه راجعون، ينبغـي أن نكون لهما عونـا يا هاجر في تلـك المحنة، فليس لهما بعد الله من أحد سوانا.

أجابتـه هاجـر: إنني أذهب إلى الـدار كل يوم وأجهز لهما ما يحتاجانه.

هز عمار رأسه قائلًا: هذا غير كاف يا هند، سأبعث إليهما بمـن يقيم معهما للخدمة، وفي نفس الوقت سأسـتأجر رجلًا أمينـًا يعمل مكان العم همام في دكانه حتى يظل مفتوحًا ويدر

عليهما أموالًا للنفقة، أنت تعلمين أن الشـيخ عنيد، ولن يقبل أي أموال مني أو من غيري.

هاجر: نعم، يا عمار، هذا هو الرأي، بارك الله فيك وجعله في ميزانك يوم القيامة، فكما قلتَ: ليس لهما بعد الله سوانا.



لدغة على العشاء

فتح أحد الحراس باب حجرة السجن ومعه زميل له يحمل العشاء لابن عربي والمنصور، فوضعه أمامهما وهو يقول: من حسن حظك أيها الرجل أنك نزيل الحجرة مع الشيخ، فلتنعم بعشاء لم تكن لتحلم به في أي سجن آخر.

وضع الحارس مشعلًا على جدار الحجرة، وهو يقول: وهذا أيضًا مشعل كرامة للشيخ الجليل، قالها ثم خرج وأغلق صاحبه الباب.

نظر المنصور إلى ابن عربي في صمت لم يلبث طويلًا حيث سأله: ما هي جريمتك أيها الشيخ؟ ولماذا يعاملونك على هذا النحو المختلف؟

ابتسم ابن عربي كعادته قائلًا: لا عليك، إنما يعاملون شيخا فانيًا هرمًا، وأكبرهم سنًّا هنا كأصغر أبنائي، وأما عن سبب مجيئي إلى هذا المكان فهي قصة طويلة قد أحكيها لك يومًا ما.

المنصور وهو يتحدث بكلام باهت: يومًا ما؟ أنسيت أنها ليلتي الأخيرة أيها الشيخ؟

ارتبك الشيخ فتدارك أمره قائلًا: فلتكن أسعد لياليك يا ولدي، عندما تمخر في بحار المعرفة، وتتعلم في ليلة واحدة ما يغنيك عن عشرات السنين التي قضيتها في حياتك، اجلس يا ولدي، اجلس نتناول العشاء سويًا، هيا.

شرع الرجلان في تناول الطعام، وقد انشغل المنصور بهمومه عن تذوق الطعام والتلذذ به، ولم يفته أن ينظر إلى ابن عربي وهو يأكل، ويقول في نفسه: هذا الرجل غريب الأطوار حقًا، أشعر أنه ما من حديث يرى له أثر على وجهه أبدًا.

«هل ندمت يا منصور على جرائمك؟».

بتلك الكلمات باغت الشيخ جليسه، فأجاب الأخير بكل هدوء دون أن يرفع بصره إلى سائله: حقًا لم أندم على قتل جعفر، كان ظالمًا جائرًا، دمر أسرة كانت تعيش في سعادة، لم أكن لأدعه يعيش بعد أن وأد أحلامها.

الشيخ في شغف: هل هي أسرتك؟

هز المنصور رأسه نافيًا وهو يتابع: كلا، ولكن رق قلبي لحال تلك الأسرة الصغيرة التي دمرها الوغد جعفر.



أغمض المنصور عينيه وهو يتابع بصوت كأنه آت من بئر سحيق: وفيما عدا جعفر، لو نظرتُ إلى الموت طوال حياتي كما أنظر إليه اليوم لما أقدمت على إزهاق هذه الأنفس التي لم أعد أعلم عددها.

تنهد المنصـور بعمق وقد توقف عن تناول العشـاء وهو يستطرد: لم أره في يوم من الأيام قريبًا، ولم أقلب فكري في لقاء الله والحساب يوم العرض عليه سوى الآن، الآن فقط.

حانت من ابن عربي ابتسامته التي جعل منها مبتدأ حديثه في كل مرة، ثم قال قبل أن يرفع لقمة في يده إلى فمه: لا عليك يا منصور هون على نفسك يا ولدي، فأنت لم ترتكب جرما.

انتفـض المنصـور رغم أغلالـه وكأنه قد لـدغ، فصاح في وجه الشـيخ بنبرة تجمع بين الغضب والضيق والدهشـة: هل جننـت أيهـا الرجل، لا ريب أنك قـد هرمت وصرت تهذي، وما الجرم إذًا، إن لم يكن إراقة الدماء أيها المعتوه؟!

اتسـعت ابتسامة الشيخ من جديد وهو يقول: يا منصور الحلال والحرام والإيمان والكفر شيء واحد، كلها شيء واحد يا ولدي.

عـاود المنصور صراخه الهادر من جديـد وهو يكاد يجزم بأن ذلك الشيخ مجنون، فقال: ما هذا الكلام الذي تتفوه به؟! أنت بالفعل مجنون.

اتجـه بعدهـا إلى باب حجرة السـجن يقرعـه بعنف وهو يقـول: أخرجـوني من هـذه الغرفـة، لا أريد أن أقـضي ليلتي الأخـيرة مع هذا الأخرق، افتحوا الباب، لقد وضعتموني مع مجنون، افتحوا الباب.

نهـض ابن عربي مـن مكانه وهو يحـاول التهدئة من روع المنصور الذي أذهلته تلـك الكلمات الغريبة، فربت على كتفه وهو يقول: حسنًا يا ولدي انس الأمر، اهدأ يا منصور، كأنك لم تسمع شيئًا يا ولدي.

بدأ الهدوء يعود إلى المنصور تدريجيًا، والشـيخ يأخذ بيده ليجلسـه مـن جديد ويكرر كلماتـه: اهدأ انس مـا قلت تمامًا، لا عليـك، فعاود ابتسـامته المعهـودة وهو يقول: فلنسـتأنف عشاءنا يا ولدي.

أشـاح المنصور بيده وهو لم يتخلص بعد من آثار الضجر فقال: لقد شبعت، لا رغبة لي في المزيد.

ابـن عربي: حسـنًا يا ولدي، كما تحب، أنـا أيضًا لم تعد بي رغبة في تناول المزيد من الطعام.

ارتخـت ملامح المنصور حتى عادت إلى وضعها الطبيعي فقـال: أتعلم؟ أنـت رجل طيـب، يبدو ذلك عليـك، لكنك غريب الأطوار في أفعالك وكلماتك، فألتمس لديك ألا تعود لمثل هذه الأحاديث التي تطلق وكاء غضبي.

ربت ابن عربي على فخذ المنصور وهو يقول: على الرحب والسعة أيها الشاب الطيب، ولكن أخبرني.

المنصور في هدوء: وماذا تود معرفته أيها الشيخ؟

ابـن عربي: ما الـذي دفعك لأن تسـلك طريـق الجريمة والقتل والنهب؟ أهي رغبة محضة في المال والسطوة؟

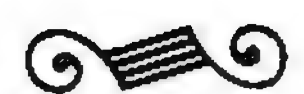
تنهد المنصور بعمق وهو يقول: لماذا تستدعي الماضي أيها الشـيخ الطيب، دعه وشأنه، ما الفارق إذا كان الدافع ما قلتَ أم كان غـير ذلك؟ فسـواء هذا أو ذاك، فقـد قطعت الطريق، وها أنا قد وصلت إلى نهايته، ونهاية حياتي بأسرها.

ابـن عربي: لا أدري لماذا أرغب في التعرف على ماضيك، قد يكون السـبب هو شـعوري بأنني أمام رجـل أقابله لأول

مـرة في حياتي، وأجالسـه وأتناول معه الطعـام وأتجاذب معه أطراف الحديث، وأنا أعلم أنه سيفارق الحياة بعد سويعات، أليس أمرًا غريبًا؟

هـز المنصـور رأسـه موافقًـا: هـو بالفعـل أمـر عجيب، وسألبي لك رغبتك يا شيخ، سأخبرك بقصتي، فلم يكن هذا الطريق هو الذي أرغب في سلوكه، سأخبرك.

اتسـعت عينا ابن عربي في اهتمام بالغ وهو يصغي سـمعه للمنصـور وهـو يـروي له قصتـه مـع الجريمة، وظـل يحكي ويحكي ويحكي.....



السقّاء الشريف

افترش المنصور وأبوه الأرض بينما كانت الأم تجهز لهما طعام الإفطار، وجلس الثلاثة يتناولونه في ظل أجواء من البهجة بتلك الحياة الهادئة رغم بساطتها، فما من شيء يعكر صفو هذه الأسرة الصغيرة، فالوالد شفوق محب لزوجته وولده يحتويهما ويبسط عليهما جناح الرحمة.

وتلك الأم الحنون التي لا تجاوز أمنياتها أن ترى البسمة على وجه حبيبيها، وأن تحمل للمنصور أبناءه وتسمع كلمة: جدتي جدتي.

وذلك الابن البار، زين شباب الحي، يغدق البر على والديه كالغيث، قد حاز من الأخلاق ما جعله حديث الرجال والنساء في أنديتهم، فهو الفتى الشهم الخلوق طيب اللسان مثال الأمانة.

وبينما كانت البسمة ترتسم على الوجوه، كان الحديث على الطعام عن حدث عظيم مرتقب لدى تلك الأسرة الصغيرة.

هند: متى ستذهب إلى والد هاجر يا أبا المنصور

احمرَّ وجه المنصور خجلًا بينما أجاب والده: سأذهب إليه آخر النهار يا هند إن شاء الله تعالى، بعدما أتهيأ والمنصور بعد عودتنا من العمل.

المنصور: هل تعتقد أنه سيقبل بي زوجًا لابنته يا والدي؟

همام: ولماذا يأبى تزويج مثلك يا منصور؟

أطرق المنصور برأسه أرضًا: عفوًا يا أبي، فأنت تعلم أنهم...

قاطعة همام مبتسمًا: أكثر منا مالًا، أعرف يا ولدي، لكنك تملك يا منصور ما يجعلك تطرق أبواب الحرائر وأنت مطمئن القلب، ارفع رأسك يا ولدي، فرأس مالنا كرامتنا وأخلاقنا بين الناس، جعلنا الله في عز باستغنائنا عن الخلق.

صمت برهة ثم تبسم قائلًا: أنت سليل عائلة شريفة يا منصور، وجدك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ثريًا ووجيهًا، وخسر ماله في آخر سنوات عمره، لكنه لم يخسر سيرته الطيبة بين الناس، وهي ما تركه لنا من إرث ولله الحمد والمنة.

المنصـور وقد بدت علامات الارتيـاح على وجهه: نعم، صدقـت يا أبا المنصور، وما إن قالها حتى أطرق برأسـه أرضًا في وجوم كالذي تذكر أمرًا ما سـيئًا، فاستطرد: ولكن يا أبت أنت تعلم كذلك أن ابن أشـهر تجار الناحية وأكثرهم وجاهة يريدها لنفسه.

همام مقطبًا جبينه: من تعني؟

أجابه المنصور: يوسف بن سيف الدين الحلبي.

هز الوالد رأسـه مبتسمًا وهو يقول: لا تنس يا منصور أن العبـاس والد هاجر هو لي أخ وصديق منـذ أمد بعيد، وكثيرًا مـا تحدثنا سـويًا عن تزويجـك بابنته منذ أن كنتـما طفلين، فلا أظـن الرجل يحنث بوعده، وعلى كل حـال يا ولدي، نعرض بضاعتنـا وربـك يمـضي البيع أو يصرفـه عنا لحكمـة يعلمها ونجهلهـا، والخير فيما اختـاره الله تعالى، ولن يأتيك من الدنيا إلا ماكتب الله لك.

تدخلت الأم مازحة: أسـمعت كلامًا من قبل بهذا البهاء يا منصور؟

ضحك الجميع في الوقت الذي أجاب المنصور: لا حرمني الله من كلماتك العذبة يا والدي الحبيب، أنتما لي بالفعل خير والدين لولد.

همام: إذا هيا بنا أيها الهمام، ولنحمل قرب الماء كالعادة لنسقي الظماء، ونروي الأكباد.

قام الاثنان وهما يودعان الأم الحنون، والتي ظلت تغمرهما بخالص الدعوات بأن يسدد الله لهما الخطى، ويرزقهما من حيث لا يحتسبان.



طرقة على باب العفيفة

ارتدى العباس والد هاجر ثيابًا فاخرة، وجعل يضبط كور عمامته، ويتعطر، بينما ترمقه زوجته في غيظ وهي تقول: يا رجل، تتهيأ وكأنك تذهب لعرسك، ماذا دهاك؟!

هز العباس رأسه في مرح وهو يقول: كيف لا أتهيأ وابنتي الوحيدة الحبيبة على خطوات من الزواج يا امرأة؟

ازدادت أم هاجر غيظًا وهو تضغط على أضراسها قائلة: ما أصلب عقلك، تدع يوسف ابن أشهر التجار وصاحب الكلمة النافذة والأموال الطائلة، وتزوج ابنتك للسقاء ابن السقاء؟ أيعقل هذا يا رجل؟!

ارتسمت ملامح الجدية على وجه العباس وهو يقول في حزم هادئ: هذا السقاء الذي تتكلمي عنه لم ير في حلب من هو في عمره ويحمل تلك الخصال والطباع، وإنه ليرجح بالمئات من ابن سيف الدين هذا في ميزان الرجال.

استطرد متهكمًا: وأما والده السقاء هذا الذي تسخرين منه، فلم أر صديقًا وأخًا مثله في حياتي، ومواقفه معي لا

تنسى، وأظن أنك ما زلت تتذكرين أن هذا بيتنا القديم الذي بدأنا فيه حياتنا، قد وهبه إيانا في بداية زواجنا بعد أن طردنا والدي، أنسيتِ؟

احمر وجه المرأة خجلًا وهي تشيح بوجهها في انفعال وهي تقول: كفاك تعييرا، لقد حفظت هذه الكلمة، قرعت بها أذناي مرارا، لم يكن سوى معروفا طال عليه الأمد.

العباس: لا يا أم هاجر، ليس مجرد معروف، لم يكن همام يمتلك زيادة على بيته المتواضع سوى هذا المنزل، ومع ذلك آثرني به، وحتى هذه اللحظة لا يعلم بهذا الأمر سوانا، حتى أم المنصور تظن أن زوجها باع البيت وقضى بثمنه دينه، كل ذلك حتى لا يترك أثرا في نفسي.

صمت برهة ثم تابع: وبعد أن صرنا في سعة من العيش، أبى أن أعيد إليه البيت أو ثمنه، برغم حاجته للمال، وقال لي يومها: لو كان هذا ما تعنيه الصداقة لديك، فلنفترق إذا.

استطرد العباس في تأثر: لقد عشت حياتي لم أر مثل هذا الرجل، ثم بعد ذلك كله، تريدين مني ألا أزوج ابنتي ولده؟ وهل من أسرة تحفظ لي قرة عيني هاجر كهذه الأسرة؟

قالت الأم في غيظ وكأن هذه الكلمات كانت لغيرها: أنت وشأنك أيها العنيد، ستندم لا شك يومًا ما.

وما كادت تنتهي من مقالتها حتى طرق الباب طارق، أدركا أنه همام وولده، وعلى الفور استقبلهما العباس بالترحاب والعناق، وأجلسهما وأكرمهما وضيفهما، ثم جلس الثلاثة يخوضون في هذا الشأن البهيج.

همام: فما ردك يا عباس؟

العباس وقد بدت عليه الدهشة: تسألني يا همام؟! وهل سأجد لابنتي خيرًا من المنصور؟ وهل سأجد لها أبا مثلك يا رجل؟

تدخل المنصور في حياء قائلًا: أعلم يا عمّ أن هاجر تستحق من هو أفضل وأكثر ثراء، لكن....

قاطعه العباس بحزم: إياك أن تنطق بمثل هذه الكلمات يا بني، أنا لا أبيع ابنتي، إنما أزوجها لمن يصونها، وما تغني الأموال عنها إن تزوجها لئيم الطباع؟

رسم العباس على وجهه ابتسامة حتى لا يحرج ضيفيه وهو يستطرد: ومن ناحية أخرى فالفارق بيننا ليس بعيدًا يا

ولدي، لسنا في تعداد الأثرياء، والحمد لله على نعمه وفضله، والغنى غنى النفس يا منصور، ولا أنسى أبدا ما فعله أبوك معي عندما....

«عباس»، نطق بها همام وقد أوسع من حدقتيه ناظرا إلى مضيفه كالذي يسكته، فتابع العباس: أعني أن والدك كان لي نعم الأخ والصديق.

ظل المنصور ينقل بصره بين الرجلين وهو لا يفهم شيئًا، ما جعل أباه وصديقه يضحكان بلا انقطاع.

وفي تلك الأثناء كانت هاجر وابنة عمها ريحانة تحاولان التقاط شيء من حديث الرجال، فتناهى إلى أذنيهما خبر تحديد موعد الزفاف، فانهالت الفتاة على العروس تقبيلًا وعناقًا تهنئها بالمناسبة السعيدة.

«فلتعزيها بدلًا من أن تهنئيها».

قالتها أم هاجر في حنق وبصوت تجاهد نفسها في خفضه، فتابعت: ابنتي أنا تتزوج من سقاء ابن سقاء؟

وضعت ريحانة كفها على فمها وهي تكتم ضحكة ترغب في الانفجار، فتماسكت وهي تقول: يا زوجة عمي، المنصور

لا يعيبه عمله، والناس كلها تعرفه وتشيد بأخلاقه ورجولته، وليت له أخ ما كنت لأدعه يتزوج غيري.

لم تستطع ريحانة وهاجر كبح جماح الضحكات التي انطلقت رغما عنهما، ما جعل الأم تستشيط غضبا، وهي تضغط على أضراسها: تبا لفتيات ذلك العصر.

هدأت هاجر من روعها وهي تقول في هدوء: أمي حبيبتي، لقد تربيت في منزل العم همام، وأعرف المنصور كما أعرف نفسي، فليس هناك ما يخفيه علينا من طباعه، ورغم ذلك لو ردّه والدي لما راجعته.

أسكنت الكلمات نفس الوالدة بعض الشيء وهي تقول بنبرة مغايرة: أرجو أن يخيب ظني به، ثم عادت إلى سخطها مرة أخرى وهو تقول: ولكن ابنتي تتزوج من سقاء ابن سقاء؟

مالت الفتاتان من فرط الضحك رغم المحاولات المستميتة لخفضه حتى لا يصل صوتهما إلى أسماع الرجال، وما أسكنهما إلا صوت العباس وهو يودع ضيفيه: في رعاية الله، على موعدنا إن شاء الله.

كلمات هائمة

«لماذا توقفت عن الحديث يا ولدي؟ أكمل».

كان هـذا أول ما نطق به ابن عـربي بعدما توقف المنصور عن حديثه فجأة، ولزم الصمت ووجهه مبتسم كالذي يستعير الفرحـة من الماضي، فالتفت إلى الشـيخ والابتسـامة لم تفارقه بعـد وهو يقول في هـدوء: كانت أيام سـعادة وهناء، غمرت الفرحـة بيتنا الصغـير، ولم يكن لنا حديث بين أرجائه سـوى الحدث السعيد، والتجهز ليوم الزفاف.

توقف برهة، ثم استـطرد وهـو يأخذ نفسًـا عميقًا رافعًا وجهه لأعلى: كان حلمًا جميلًا حقًّا، لكنه لم يكتمل.

ابـن عربي بلهفة: لقد أثرت فضولي حقًّا يا منصور، ارفق بي يا ولدي، وأكمل ما بدأته من حديثك.

هز المنصور رأسـه موافقًا وهو يقول: حسـنًا أيها الشـيخ سأكمل، لكني أردت أن أسألك عن شيء.

أجابـه ابن عربي: سـل ما بدا لك يـا منصور، لكن أسرع فإني في شوق لسماع قصتك.

ضحك المنصور، ثم قال: سأخبرك أيها الشيخ، لكني أردت أن أسألك عن معنى الكلام الغريب الذي ذكرته منذ قليل، كيف تكون المتضادات شيئًا واحدًا، الإيمان والكفر، والحلال والحرام؟

تبسم الشيخ وكأنه وجد ضالته، فأجابه: لا داعي لأن أكمل حديثي في هذا الشأن يا منصور، فهو يثير غضبك، وأنا لا أريد أن يبدر مني ما يسوءك.

المنصور: لا عليك يا شيخ، لن أغضب، ورغم أنني أعرف مسبقًا أنه هذيان، لكنني أريد تفسيرًا منك لما أثرت دهشتي به، فأنا حقًّا أتوقف في نعتك بالجنون.

ضحك ابن عربي وهو يقول: حتى العقل والجنون شيء واحد يا منصور.

جعل المنصور يضرب كفًّا فوق الآخر ضاحكًا، ثم استطرد: وكيف إذا أيها الفذ؟

ابن عربي: سأخبرك، فأعرني سمعك وعقلك يا ولدي، فلتعلم يا منصور أنه ليس في الوجود إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو موجود واحد.

انفجر المنصور ضاحكًا وهو يقول: أيها الشـيخ المجنون، وماذا عني وعنك، وعن الشمس والقمر والنجوم والدواب، مـاذا عـن كل هذه المخلوقات؟ أليسـت موجـودة؟ كل ما في الأمر أن هناك خالق ومخلوق.

برقـت عينا ابن عربي وهو يهز رأسـه نفيًـا ببطء قائلًا: لا يـا ولدي، هـو موجود واحـد، كل ما تراه من نفسـك أو من حولك، إنما هي صورة للموجود الأوحد، لله تعالى.

نظـر الشـيخ إلى المنصـور الـذي قطـب جبينه في دهشـة واستنكار فاستطرد: يا منصور، كل هذه الأمور مجرد صور، وأمـا الحقيقة فإنه لا موجود إلا الحق وحـده كل هذه الأمور هي عين الرب سبحانه.

المنصـور وهـو يضغط على أضراسـه حـيرة وغضبًا: أيها الشيخ ارحم جهلي وضعف فهمي، وحدثني بما أطيق.

اتسـعت عينا الشـيخ في جزل وهو يقول: ما أريد قوله يا منصـور، أن الله يتجـلى في كل شيء، فيك وفيّ وفي غيرنا، لأن الوجود حقيقته واحد.

مسح المنصور وجهه بيده وقد تملكته الحيرة، وهم بالانفجار غضبا لولا أنه تذكر ما وعد به الشيخ فكظم غيظه فجعل يشير بكفه في حركات متتالية كأنه يسكته، فاستجاب الشيخ وكف عن الكلام.

ساد الصمت في الحجرة لا في نفس المنصور، حيث جعل الكلام يتردد في ردهات عقله: شأنه عجيب هذا الرجل، ليس هذا بحال المجنون، أيكون زنديقًا كافرًا؟ كيف ذلك لقد صلى معي، ويعبد الله وحده، لكن هذا الكلام الذي يهيم به في كل واد، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

«ألن تكمل قصتك يا منصور».

شق الشيخ بهذه الكلمات ذلك الصمت الذي ران على الحجرة، فتبسم المنصور ابتسامة خافتة وهو يعدل من وضع جلوسه قائلًا: حسنًا أيها الشيخ الغريب، سأكمل لك.

الغريــم

«أترفض تزويج ولدي ابنتك يا عباس من أجل ذلك الصعلوك؟ ابن سيف الدين الحلبي أكبر تجار الناحية، يُردّ من أجل ذلك الفتى السقاء؟

كان المتحدث هو سيف الدين نفسه، والذي أغلظ القول لمضيفه، بينما كان ولده يوسف صامتا والشرر يتطاير من عينيه.

العباس: يا أبا يوسف، لقد أعطيت كلمتي لهمام، ولن أرجع عنها، وأما المنصور، فهو شاب خلوق يأكل من كده برغم صغر سنه، وأنا لا أريد لابنتي سوى من يصونها.

يوسف وقد هب واقفا وهو يقول في غضب: هكذا إذا، ترفض يوسف الذي تتطلع كافة بنات حلب للزواج منه، سوف تندم يا عباس، هيا بنا يا أبي.

نهض سيف الدين بدوره وهو يردد مقالة ولده: نعم، صدق ولدي، سوف تندم.

قام العباس في صمت وهو يفتح لهما الباب بهدوء ليخرج الاثنان وقد انتفخت أوداجهما، فأغلق الباب دونهما

وقطع بعـض خطوات في بطء وقد بدا عليـه التوتر من مقالة الرجلين، وجعلت الخواطر السيئة تتزاحم في عقله، ولم ينتزعه من شروده سوى صوت زوجته وهي تقول: أرأيت ما جلبته لنا أيها الحاذق؟ لقد استشـاط الرجل وابنـه غضبًا، ونحن لا قبل لنا بسيف الدين وولده.

العباس في غضب: مـاذا دهاك يا امرأة، لم هذا التهويل؟ لقد انزعج الرجلان فحسب.

تدخلـت هاجر بعدما سـمعت الحوار منـذ بدايته قائلة: والدي، أخشـى أن يؤذيك ذلك الرجـل الفظ، أنت تعلم أنه ذو سطوة وسلطان.

التفـت إليها العباس في هـدوء وهو يقول مطَمْئِنا: وأنت أيضًـا يا هاجر؟ ماذا دهاكـما؟ الأمر لا يعدو أن يكون الرجل قد ساءه الأمر، الزواج ليس بالإكراه يا ابنتي، لا تكترثا لتلك الوساوس، لا نريد لبعض الهواجس أن تفسد علينا فرحتنا.

مسح على شعرها في حنان وابتسامة تخفي وراءها التوتر: فلتسـتعدي يـا أجمل عـروس، فغدا سـوف تدخلـين حياتك الجديـدة، ولا أدري أهنـأ نفسي بـزواج حبيبتي وقـرة عيني،

أم أعزيها لأنني سأستيقظ من نومي ولا تشرق علي حبيبتي شمس حياتي كل صباح؟

اغرورقت عينا هاجر بالدموع وهي تقول: لا يا والدي، لا تذبحني بتلك الكلمات، الأمر ما زال بيدنا، لو عشت حياتي بغير زواج فحسبي أن أرى البسمة على وجهك.

قالتها وانفجرت باكية، فطوقها والدها بيده وضمها إلى صدره وهو يحاول التخفيف عنها بمزاحه: ومن يأتيني بمن يناديني: جدي، جدي؟ نطق بالكلمة الأخيرة وهو يحاكي صوت الأطفال، ثم استطرد: هي سنة بين الخلق يا ابنتي، ولولا ذلك ما جئت أنت إلى هذه الدنيا، ولظلت أمك في بيت أبيها.

التفت يمينًا ويسارًا، فلما اطمأن إلى أن زوجته غادرت المكان قال بصوت خافت: وليتها فعلت.

وهنا انقلب البكاء إلى ضحك مفاجئ غرق فيه الاثنان، لتأتي الأم على إثره وهي تنقل بصرها بين الاثنين قائلة: ماذا دهاكما؟ ما سر هذا الضحك المفاجئ.

نظر العباس وابنته كل منهما للآخر، سرعان ما انفجرا في الضحك مرة أخرى، لتتركهما أم هاجر وهي تضرب كفا على الآخر وتقول في خفوت وهي تضغط على أضراسها: سامحك الله يا والدي، أما وجدت غير هذا المجنون تزوجني إياه؟



شريعة الغاب

كعادة الأسرة الصغيرة، جلس المنصور ووالداه يتناولون طعام الإفطار، وما إن فرغوا حتى هب الشيخ همام يتناول قربة الماء، فما كان من المنصور وأمه إلا أن هتفا في وقت واحد: إلى أين؟

تبسم همام لذلك التوافق في طرح السؤال، فأجاب: إلى العمل، ماذا دهاكما؟

مرة أخرى، هتف الاثنان في وقت واحد: اليوم؟

ضحك الثلاثة جميعهم هذه المرة، فتابعت أم المنصور: أي عمل هذا يا رجل في هذا اليوم، أنسيت أن الليلة زفاف المنصور؟

ابتسم همام مجيبًا: قلتيها بنفسك: اليوم زفاف المنصور، وليس زفاف همام، لا أستطيع أن أجلس يومًا دون عمل يا أم المنصور وأنت تعرفين ذلك جيدًا، كما أننا قمنا بعمل كل ما يلزم وتم تهيئة البيت للحياة الزوجية الجديدة، فلا ينقصنا شيء حتى أمكث من أجله.

همت بالاعتراض فتابع: التجار في السوق يعلمون أن زفاف المنصور اليوم، ولذا سألوني عن السقاء، فوعدتهم أن أحمل إليهم الماء، اطمئني لن أتأخر كثيرا اليوم.

نهض المنصور لكي يحمل القربة الثانية فعاجله والده بقوله: إلى أين يا منصور؟

نظر المنصور إلى والده بدهشة قائلًا: معك بالطبع يا والدي، إلى العمل.

همام متبسمًا: لا لا لا، أنسيت أن عرسك اليوم يا فتى؟ لن تذهب معي بأي حال.

هم المنصور بمراجعة والده، إلا أن الأم تدخلت لتشارك الوالد رأيه في أن يبقى المنصور ولا يخرج للعمل مع أبيه.

انتصف النهار، وما زال همام يجوب الأحياء يوزع الماء على بيوت الحي، والبسمة لا تفارقه، والتهنئات بالحدث السعيد تغمره من قبل كل من يمر عليهم، في الوقت الذي ترفرف السعادة على بيتي الأسرتين، وتعلق الزينة على الأبواب.

حان وقت صلاة العصر، فدخل همام مسجدًا في السوق يؤدي الفريضة مع الراكعين، وما إن فرغ الإمام حتى وفد

المصلـون يهنئون أبا المنصور على زفـاف ولده الوحيد، فازداد الشـيخ سـعادة إلى سـعادته لما رآه مـن محبة الناس لـه، والتي تعدل لديه كنوز الأرض.

وما إن خرج من المسجد حتى تلقاه «زكريا» أحد أصدقاء سيف الدين التاجر المعروف، فتبسم في وجه همام قائلًا: بارك الله لولدك وعروسه يا شيخ همام.

همام: وبارك فيك يا شـيخ زكريا، جـزاك الله خيرًا، وأقر عينك بأولادك.

أخـذه زكريـا مـن يـده بعيدًا عـن المـارة وهو يقـول: أبا المنصور، هل من معروف تسديه إليّ؟

همـام: على الرحب والسـعة يا شـيخ زكريا، سـل ما بدا لك.

هـذه الـصرة فيها زكاة أمـوالي، وأريـد أن أعطيها جارك سعيد، ولكني لا أريد أن يعلم بأني صاحبها، فهلا دفعتها إليه بنفسك دون أن تذكر اسمي لديه؟ هذا عمل بيني وبين الله لا أريد به شهرة.

تبسم أبو المنصور قائلًا: بارك الله فيك يا شيخ زكريا وكثر من أمثالك وتقبل عملك، لا عليك، سوف أضعها حيث شئت، ولكن هلا بعثت معي أحدًا كي يرى بنفسه أنني سلمتها لسعيد؟

زكريا: معاذ الله، معاذ الله، ماذا تقول يا أبا المنصور؟ سيرتك الطيبة وأمانتك تسبقك قبل خطواتك، كيف تقول هذا يا شيخ؟!

هز همام رأسه موافقًا، ووضع الصرة داخل ثيابه، ثم ودع الرجل منصرفا، وما كاد يجاوز المكان حتى وقعت عيناه على محل هو الأكبر في السوق، لم يكن صاحبه سوى سيف الدين والد يوسف غريم المنصور.

كان الرجل يجلس أمام دكانه، فما إن رأى همام حتى قال له: أريد قربة ماء داخل المحل يا أبا المنصور.

هز همام رأسه مبتسمًا وهو يقول: حسنًا يا أبا يوسف لقد كنت أنوي أن تكون الأخيرة ثم أنصرف إلى البيت.

سيف الدين: أراك تنصرف من عملك لزفاف المنصور، أليس كذلك؟

أجابه همام: نعم يا شيخ سيف الدين، أقر الله عينك بزواج يوسف وإخوته.

خرج يوسف بن سيف الدين من المحل وهو يصطنع ابتسامة على وجهه قائلًا: بارك الله للمنصور يا شيخ همام، وأقر عينيك برؤية أحفادك.

اقترب همام من المحل يحمل على ظهره قربة الماء وهو يقول: وبارك فيك يا ولدي، وأسأل الله أن نشهد عرسك قريبًا.

دخل همام وأفرغ ماء القربة في إناء كبير داخل الدكان بينما كان يوسف يرافقه، ثم خرج أبو المنصور وأخذ أجرة السقاء من سيف الدين، فأخذه حامدًا ربه على رزقه، ثم ألقى السلام على الرجل منصرفًا.

«توقف أيها اللص، أمسكوا به».

نطق بها سيف الدين بصوت عال اجتذب انتباه جميع المارة والباعة في السوق، وأما همام فقد التفت بدوره بتلقائية ليعرف من هو المقصود بالنداء.

سرعان ما أقبل عليه يوسف وولده يمسكانه من ذراعه بقوة بينما كان مندهشًا لا يستوعب الأمر، فتعالت صيحات الرجل وابنه ما بين سب وشتائم واتهامات بالسرقة.

تجمع الناس حول الأصوات المرتفعة، في الوقت الذي قال فيه سيف الدين: أخرج المال الذي سرقته أيها اللص، أما تستحي من نفسك، نستأمنك وندخلك دورنا ومحالنا ثم تسرقنا؟

همام: اخسأ أيها الرجل، معاذ الله أن تمتد يدي إلى الحرام.

يوسف صارخًا: وما هذا الذي يبرز إذا من ثيابك يا مدعي التقوى؟

تحسس همام موضع الصرة من ثيابه بعفوية وهو يبادل يوسف الصراخ: إنها ليست لي.

سيف الدين: نعم، نعلم أنها ليست لي، لأنها ملكنا أيها السارق.

انتزع سيف الدين الصرة بعنف رغما عن همام، وهو يقول: هذا مالنا أيها اللص.

تدخل شيخ مسن يدعى «حسان» قائلًا: يا أبا يوسف ما برهانك على ما تقول، فما علمنا عن الرجل إلا الخير.

أجابه سيف الدين على الفور، نعم أيها الشيخ، هذه الصرة بها خاتمي، افتحها ولتر ما بداخلها.

جعل همام يسترجع ويقول: ماذا دهاكم أيها الناس، ألا تصدقوني؟ مذ متى علمتم عني السرقة؟

أفرغ الشيخ أمام الناس محتوى الصرة، فتناثر المال على الأرض، فمال الرجل ليلتقط شيئًا ما من بين المال، ثم رفعه قائلًا في أسف: خاتم الشيخ سيف الدين.

علت الهمهمات بين الناس من هول المفاجأة، وترددت عبارة (الشيخ همام سرق) ينطقها الحضور في خفوت، لكنها كادت تفتك بسمع همام والذي صرخ بأعلى صوته: اتقوا الله، أقسم بالواحد الأحد أنها أمانة كنت سأوصلها إلى صاحبها، إنها تخص الشيخ زكريا، أين هو؟

برز الشيخ زكريا داخل الحلقة التي عقدها الناس حول همام وسيف الدين وولده والشيخ المسن، فنظر في دهشة إلى

أبي المنصور وهو يقول: أي أمانة أيها الرجل؟ أما يكفيك أن تكون سارقًا حتى تفتري عليّ الكذب؟

نظر همام في هلع إلى زكريا واقترب منه وأمسك بتلابيبه صارخا: ماذا دهاك يا شيخ زكريا؟ ألم تعطني الصرة وتطلب مني أن أعطيها جاري الفقير؟ تكلم بالحق يا رجل، تكلم.

أبعد زكريا يدي همام بعنف، وهو يقول: اصمت أيها السارق، تريد أن تزوج ولدك من الحرام؟

يوسف: فلنسلمه إلى الشرطة يا والدي، والناس كلهم شهود.

سيف الدين في غضب: ليس قبل أن يأخذ جزاءه هنا في هذا المكان، يا غلام، السوط.

هرع أحد رجال سيف الدين إلى المحل وسرعان ما خرج منه بسوط غليظ، وقد اتسعت عينا همام وهو يفرك عينيه في دهشة، وكأنه يتأكد أن ذلك ليس حلمًا مفزعًا.

جعل الناس يصرخون في وجه همام ما بين مشفق وناقم: لماذا فعلت ذلك يا أبا المنصور؟ كنت تخدعنا طيلة هذه

السنين وتوهمنا بصلاحك؟ لماذا يا شيخ همام تقدم على هذه الجريمة؟

كانت تلك الكلمات المريعة تنزل بهمام ألما أشد من ذلك السوط الذي يمزق ثيابه ونفذ إلى بشرته ليأكل فيها.

كان الشيخ المظلوم قد تكوم على الأرض ينتفض صارخًا مع كل ضربة سوط، ولم يزد على قول: حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل، في ظل توافد مزيد من الناس يشهدوا ذلك الحدث الجلل.

«كلاااا، أبي».

كان الصارخ بها هو المنصور، والذي وصل الخبر إلى بيته، فانطلق يسابق الريح إلى مكان الحادث، وما كاد يلمح السوط يرفع من بعيد حتى زاد من سرعته فبدا كأن قدميه لا تلامسان صعيد الأرض، فلما اقترب وثب كالليث صوب سيف الدين ليوقعه أرضًا، ويمسك رقبته بكلتي يديه يخنقه، حتى برز لسان الرجل وانحبس الدم في وجهه، وسط صراخ المنصور: أيها الحقير، ترفع سوطك على أبي، سأقتلك.

لم يكـد المنصـور يكمل الكلمة حتى فوجـئ بضربة قوية على رأسـه أفقدته توازنه وجعلتـه يميل عن عدوه وهو يقاوم الدوار.

أحـاط رجال سـيف الديـن بالمنصـور وأوسـعوه ضربًا بالعصي، لكنهم لم يظفروا به بسـهوله، حيث وثب على قدميه بحركـة مباغته ودفع برأسـه أحدهـم في بطنه ليسـقطه أرضًا ويلتقط المنصور العصا.

لم يكن ذلك الذي يقاتل هو المنصور المسالم الوديع هادئ الطباع، لقد كان أسـدًا جريحًا نالت أيـادي الغدر من أغلى ما لديه.

كان الفتـى ذو العشريـن ربيعًـا لا يعبـأ بتلـك الضربات التي تنهال على جسـده فلقد أنسـاه مرأى جَلْد والده كل آلام الدنيـا، ها هـو يتلقى ضربة من هـذا فيرد بمثلها على رأسـه، ومن هذا فيهوي بمثلها على سـاقه ليسـقطه أرضًا، ومن ذاك ليدفع العصا بعنف في وجهه.

لكنه مع فرط شـجاعته لم ليكن ليصمد أمام هذا الجمع، فهـوى جسـده عـلى الأرض والدمـاء تغرق وجهـه لتواصل انحدارها وتروي التراب.

أمسك يوسف بالسوط من على الأرض وظل يضرب به المنصور، والذي لم يعد يشعر بالآلام بعد كل ما انهال على جسده من ضربات عنيفة، في الوقت الذي كان الوالد ما زال راقدًا على الأرض لا يستطيع النهوض، وينظر إلى ولده المضرج بالدماء، وينطق باسمه في خفوت واهن: منصور، ولدي، ولدي.

انكب المنصور على وجهه أرضًا بعدما رفع يوسف عنه السوط، لكن الباغي لم يكتف بذلك، فدفع السوط إلى والده سيف الدين، وهو يقول في حنق: فلتهنئ والد العروس أمام ولده يا أبي.

أمسك يوسف بشعر المنصور في عنف وقسوة ليجبره على النظر إلى والده، بينما رفع سيف الدين سوطه ليهوي به على ظهر الشيخ الممدد على الأرض.

نظر المنصور ووالده كلاهما للآخر في وهن، نفس النظرة، وبدت دموعهما التي تسيل في صمت متشابهة في مجراها وغزارتها، وكأن كل منهما يرثي الآخر في عالم يعبث فيه القوي بمصير الضعيف، يعيشون بمنطق واحد: شريعة الغاب.

الكِتَــاب

توقـف المنصـور عـن سرد أحـداث قصتـه للشـيخ، وانتفخت أوداجه وهو يلهث في غضب، فجعل الشـيخ ينظر إليـه في صمت، فرأى على ضوء المشـعل عينين كأنهما قطعتان من الجمر، تتكور في كل منهما دمعة أبية.

وأدرك الشـيخ في تلـك اللحظـة، أن عليـه احـترام هذا الصمت الملتهب، فالتزم السكوت ينتظر متى ينطق جليسه.

مكـث المنصور غـير بعيد حتى هدأت أنفاسـه، وارتخت عضلاتـه المتصلبة، والتفت في بطء إلى ابـن عربي وهو يقول: هـل تخلى عنـك فضولـك أم تخليـت عنـه؟ أراك لم تطاردني بالسؤال كعادتك.

مط ابن عربي شفتيه وهو يقول: انتظرت ريثما تهدأ.

ضحـك المنصور بصـوت عال دون مقدمـات، ما جعل الشـيخ يحملـق فيـه ويـشرع معـه في الضحـك دون أن يعلم السـبب، بينما قال المنصور وهو مـا زال بعد في نوبة الضحك هذه: رأيتك الآن في مخيلتي تقول لي: يوسـف وسـيف الدين

وزكريا ليسوا مجرمين، فأنت وهم سواء، الجاني والمجني عليه شيء واحد، بناء على أفكارك الفذة.

قالها المنصور واسترسل في الضحك، ولم يوقفه سوى مانطق به الشيخ: نعم، الصواب ما ذكرت يا منصور.

انتفض المنصور بأغلاله وقد ثار بداخله بركان فصاح بابن عربي قائلًا: شيخ أبله، مجنون، تساوي بين الظالم والمظلوم؟ الجلاد ومن يجلده؟ أنت تهذي، تهذي.

قام ابن عربي من مكانه في صمت وسار بعض خطوات حتى أولى المنصور ظهره، فشبك يديه خلف ظهره وهو يقول في هدوء مستفز: أخبرتك يا منصور، الوجود شيء واحد

المنصور ساخرًا: نعم كررت على مسامعي تلك الترهات مرارا، وفي كل مرة أقترب من الجزم بأنك رجل مجنون.

تبسم ابن عربي وكأن الحديث ليس إليه وقال: ما رأيك في مشركي العرب قبل زمن النبي ﷺ يا منصور؟

المنصور وقد عاد إليه هدوءه: أي سؤال هذا، كأنك تخاطب طفلًا، بالطبع كانوا عبدة أصنام وأوثان.

هز ابن عربي رأيه نفيًا في بطء وابتسامة معا وهو يقول: لا يا ولدي، كانوا على التوحيد.

المنصور وقد أِلف مثل هذه الكلمات فلم يثر غضبه: وكيف ذلك يا علامة عصرك؟

ابن عربي: أخبرتك، لأن الوجود شيء واحد، فهم لم يعبدوا سوى الله حقيقة.

وضع المنصور رأسه الذي يكاد ينفجر مما يتسلل إليه من أفكار عجيبة غير مألوفة، بين ركبته في صمت وحيرة، ثم رفع رأسه إلى ابن عربي قائلًا في خفوت: هلا أخبرتني من أين جئت بهذا الكلام، هل هو من القرآن أم من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ابتسم ابن عربي وهو يقول: من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاته مشافهة.

نظر المنصور إليه فاغرًا فاه قد تملكته الدهشة فقال: كيف ذلك؟ وبينك وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرون.

ارتسمت علامات الخشوع على الشيخ وهو يقول: «رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مبشرة أريتها في العشر الآخر من

محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاب»[1].

زوى المنصور حاجبيه قائلًا: أكمل يا شيخ، ماذا قال لك الرسول وماذا قلت، وأي كتاب هو؟

الشيخ: «قال لي: هذا كتاب فصوص الحكم خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا»[2].

قالها ثم توقف قليلًا فباغته المنصور بقوله: لماذا تصمت؟ أكمل حديثك.

الشيخ: «حققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير زيادة ولا نقصان»[3].

ظل المنصور يحدق في وجه الشيخ في صمت فترة طويلة، قال بعدها: أتعلم يا شيخ، كلامك الغريب هذا قد أنساني لوهلة أنني سأغادر الحياة فجرًا.

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي، ص(٤٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

الشيخ: ومن يدري يا منصور، لعل الله قدر لقاءنا هذا حتى تنجلي لك الحقائق الغائبة عن أكثر الناس.

نظر المنصور إليه متسائلًا: كيف؟

ابتسم ابن عربي قائلًا: سأخبرك يا ولدي، ما زال الليل بطوله معنا، لكن قبلها أود أن تستأنف سرد قصتك هذه، وإني لمتلهف لمعرفة ما حدث بعد تلك الحادثة الأليمة، دعني أخرص، لقد سلمكما سيف الدين هذا إلى الشرطة أليس كذلك؟

هز المنصور رأسه نفيًا: لم يفعل، كنت ساعتها لا أدرك تمامًا ما يدور حولي إلا النذر اليسير، فتناهى إلى سمعي استجداء الناس سيف الدين بأن يكتفي بما فعل بنا، ففعل.

ابن عربي في لهفة طفل شغوف: نعم، وماذا حدث بعدها يا منصور، تكلم، أكمل بلا انقطاع

ابتسم المنصور قائلًا: حسنًا أيها الشيخ.

الأحزان المتزاحمة

انكبت هاجر على وسادتها وأجهشت بالبكاء، وطال نحيبها حتى كادت كبدها تتفتت، وأمها بجانبها تربت على ظهرها حينًا، وتمسح دمعها حينًا آخر، وهي تقول: نحمد الله يا بنيتي أن كشف لنا أمر هذه العائلة قبيل ساعات من وقت زفافك.

«اخسئي يا امرأة وكفي لسانك عن الخوض في الأعراض».

انتفض العباس بهذه الكلمة بعدما كان يجلس مسندًا ذقنه إلى قبضته مطأطئ الرأس، فأجابته أم هاجر: أوما زلت تدافع عنهم، هؤلاء أصهارك الصالحون، يسرقون في وضح النهار.

ضغط العباس على أضراسه وهو يقول: أتصدقين هذا الهراء أيتها البلهاء؟ أليس لديك مسحة عقل تربطين بها بين ما حدث في السوق، وبين امتناعي عن تزويج هاجر لابن سيف الدين؟ أنسيتِ تهديدهما قبل أن يخرجا من داري؟ إنها

مكيـدة ولا ريب، لو قيل هذا عـن غير همام لكان من الممكن تصديقه، أما صديقي وأخي، فلو رأيته بعيني لكذبتهما.

صاحـت المـرأة: حتى لـو كان لديـك بريئا، فهو سـارق ولص لدى كل الناس.

صمـت العبـاس برهـة واغرورقت عينـاه بالدموع وهو يقول في خفـوت: نعم، تلك هي الطامـة، وتلك هي قاصمة الظهر لي.

نهض من مكانه وصار يقلب كفيه ببطء وهو يقول كمن يهذي: أنا على يقين من براءة صديقي، وفي نفس الوقت كلهم يشهدون أنه السارق، لقد صرت أنا بين نارين، أنقض عهدي بتزويج ابنتي من المنصور، وأجهز على ما تبقى من نفس ذلك المظلوم؟ أم أرضى لابنتي الهوان والمعرة بأن أزوجها لمن يوقن الناس أنه ابن لص؟

وضع كفيه على رأسـه وهو يقول بصوت عال: رحماك يا رب رحماك.

«مالنـا وللناس يا والـدي طالما كنا على يقين من أن عمي همام مظلوم»

قالتها هاجر وما زالت دموعها تشق الطريق إلى وجنتيها بلا توقف، فاستطردت: «ظلمه الناس يا أبت لأنهم لا يعرفون الشيخ همام، فهل تجهله أنت؟

تدخلت الأم صارخة: ماذا دهاكِ يا هاجر؟ هل جننتِ؟ الناس شهدوا عليه بذلك وكان الدليل أمامهم، فهو لص لدى الناس، وسيظل لصا في أذهانهم مهما كان بريئًا.

خفضت من صوتها وهو تقول لابنتها: يا ابنتي، هل تريدين أن يعير أولادك بأن جدهم سرق في يوم زفاف والديهم؟ تعقلي يا بنيتي.

صمتت هاجر لتزداد بكاء ونحيبًا، بينما قال العباس في بصوت مبحوح: أمك محقة يا هاجر، أنت لدي أغلى من كل الناس يا بنيتي، حتى من أخي ورفيق دربي، حتى من أخي ورفيق دربي.

كرر العبارة الأخيرة وهو يجهش بالبكاء إذ كانت تعلق في ذهنه صورة همام، وجالت بخاطره ذكريات الصداقة، وعشرة السنين بحلوها ومرها، لكنها عاطفة الأبوة لا تدع لها منازعًا.

ساد الصمت إلا من صوت النحيب، وفاضت الأحزان حتى اشتكت من نفسها، وطال الشرود في ساعة صمت مهيب، لم يشقه سوى هزيم الرعد تبعه صوت زخات المطر.

توجه العباس في خطوات متثاقلة صوب الباب إثر طرقات خافتة، فما إن فتح حتى وجد المنصور شاخصًا أمامه في تهالك، بنفس الهيئة التي خرج بها من الحادث الأليم، فالدماء تخثرت على وجهه، ثيابه ممزقة من آثار السياط قد اصطبغت بالأحمر القاني.

تلاقت عيناهما في صمت، وتلألأت مع سنا البرق لتتكشف الأحزان، في ذلك الحين لم يكن لدى العباس ما يقوله، ولم يزد على أن عانق المنصور بقوة وهو ينتحب، وطال نحيبه بينما المنصور مسبل اليدين، ليتحدث بصوت يأتي من أعماق بئر سحيق:

عمي العباس، أنت في حل من وعد الزواج، أقرأ هاجر مني السلام.

قالها المنصور ثم استدار منصرفا في بطء، بينما كان بصر العباس يتابع الشاب الجريح وهو يمشي وحده في الظلام وتحت المطر والبرق والرعد.

جراح لا تندمل

همام يرقد على بطنه عاري الظهر، وعلامات السياط قد برزت على بشرته، قد أغمض عينيه وسيل الدموع الساخنة يتسلل من بين الأجفان المتلاحمة، يكظم الصراخ بآلامه المبرحة.

هند تجلس منتحبة عند قدمي زوجها المكلوم، وقد أكفأت وجهها عليهما، لا تجد من الكلمات ما تواسي بها الشيخ، وتركت العنان لدموعها تنوب عن المقال.

منصور يجلس مسندًا ظهره لجدار الحجرة عاري الصدر، وعيناه البارقتان على ذلك الجسد النحيل الممدد على الأرض، يغوص بصره في تلك الجراح التي إن اندملت يومًا، فلن يجد المنصور لجراح قلبه شفاء.

حديث ذو أشجان يدور في نفس المنصور يقطع أوصالها:

«عذرًا أيها الشيخ، فولدك لم يملك لك شيئًا، لم ينصفك، عجز عن صونك، ليتني مت قبل أرى جراحك، أتذكر يوم أخبرتني أننا نرفع رأسنا بأخلاقنا وسيرتنا الطيبة بين الناس؟

لم تغـن عنا أخلاقنا شـيئًا في زمن الوحـوش الضارية يا همام، والسـيرة الطيبـة وطئت بالنعال فـما الذي ترفع بـه الهامات؟ ليتك تخبرني هل ظلَمَتْنَا سطوتهم وقوتهم أم ظَلَمَنا ضعفُنا؟

تبـددت الأحلام يا شـيخ همـام، لا عـرس ولا عروس، لا أفـراح وتهانـي، لا أحفـاد ينادونـك: جـدي، خسرنـا كل شيء، كل شيء، كل شيء، الأحباب، الأصدقاء، العمل، كل شيء».

«يا منصور، يا منصور، اقترب يا ولدي».

نطق بها الشـيخ همام في تهالـك وضعف وهو ما زال ممدا عـلى بطنه، فنهـض المنصور من مكانه ببطء وهـو يتجه ناحية أبيه، ليجلس بجانبه قائلًا في خفوت: لبيك يا والدي.

همام: فلتدع والدتك تضمد جراحك يا ولدي، لماذا تصر على أن تجلس في هذه الهيئة؟

المنصور: كلا يا أبي، أريد جراحي كما هي.

الأم: منصور يا ولدي ارض بقضاء الله، ونحمد الله أنكما على قيد الحياة.

المنصـور وهو يقلـب بصره في سـقف الحجـرة ودموعه قـد ألهبت حدقتيه: ومن قال يـا أمي أنني على قيد الحياة؟ لقد انتهت حياتي يوم أن رأيت السوط ينزل على أبي.

حاول همام أن يعتدل من رقدته غير أن الآلام قد أعجزته، فعاود الاستسـلام للفراش وهو يقول بصوت يخالطه البكاء: لا تقـل هـذا الكلام يا منصـور، لا تجعل الحياة تقـف بنا عند حادث أليم.

عـلا صوت المنصـور بغتة فصرخ حتـى رددت الجدران صراخه: العقاااااااااااب، العقاااااااااااااااااااااب.

انتفضت الأم وأقبلت على المنصور تهدئ روعه وتسكن قلبـه المضطـرب، فأخذت رأسـه في حضنها الدافـئ، فجعل يجهش بالبكاء ويغرق نحرها بدموعه.

الشيخ همام: قل حسـبي الله الوكيل يا ولدي، هو القادر عـلى القصـاص لنا من هـؤلاء الظالمين البغـاة، أغَرَتْهم قوتهم ولم يتفكـروا في بأس الله، لن يضيع الحـق يا منصور وعند الله تجتمع الخصوم.

ساد الصمت في الحجرة، ومر وقت طويل جعل والدي المنصور يستسلمان للنوم كل منهما في مكانه لم يفارقه.

وأما المنصور فقد طال ليله وازدادت عيناه احمرارا ولم يعرف النوم إليه سبيلًا، وجعلت فكرة الانتقام تتراقص أمام عينيه، فما إن بزغ الفجر حتى احتلت الرغبة في العقاب كل ذرة في كيانه.

جعل صوت المنادي يشق سكون الكون بتكبيرات الأذان، وتيقظت العيون لتسبح الألسنة بحمد ربها.

فتح الشيخ همام عينيه في وهن وأمال رأسه في وضع الرقود إلى زوجته فوجدها نائمة تحت قدميه، ثم حول رأسه ليلقي نظرة على المنصور فلم يجده.

وعلى الفور أيقظ زوجته وسألها بلهفة: أين المنصور يا هند؟

أجابته الزوجة في هدوء: اهدأ يا همام، اهدأ، حتما ذهب ليصلي الفجر، ولعله لم يوقظك من نومك لتصلي هنا في المنزل بسبب مرضك.

أومأ همام برأسه متفهما، ثم قال لها: ساعديني يا أم المنصور، أود أن أتوضأ لأصلي الصبح، فقامت الزوجة على الفور، وأحضرت له وَضوءه ووضعت عباءة رقيقة على ظهره وصلى في مكانه، لتصلي بدورها، ويقبع الاثنان في مكانهما، ينتظران عودة ابنهما الوحيد.

لم يدرك الأبوان في تلك اللحظة أن ولدهما هو ذلك الرجل الملثم، الذي تسلل إلى بيت سيف الدين الحلبي واضعًا جرابًا على كتفه.

جعل يجوب المنزل الفسيح في هدوء حذر، حتى وصل إلى حجرة يوسف، فنظر إليه خلسة فوجده يغط في نوم عميق، فوقف على رأسه والشرر يتطاير من عينيه، ويستعيد ذلك المشهد الأليم.

أشرقت الشمس، وقامت أم يوسف لكي توقظ ولدها، فما إن دخلت حجرته، حتى وجدته مقيدًا في فراشه، قد سُد فمه بقطعة من قماش، ونحر كما تذبح النعاج.

لم يستغرق هذا المشهد سوى لحظة واحدة استوعبت فيها والدة يوسف ما جرى لولدها، ونظرت إلى حيث يرقد

في هلـع، وهمت بالصراخ لولا أن عاجلتها ضربة على رأسـها أفقدتها الوعي، فجعل المنصور يقيدها ويربط على فمها بقطعة من القماش.

ثـم أخذ جرابه الذي يضع فيه حبالًا وقطعًا من القماش، ووضع السـكين الملطـخ بالدمـاء في ثيابه، وتسـلل إلى حيث حجرة سيف الدين.

حقًا لم يكن ذلك الوجه الذي امتلأ غيظًا وحقدًا وتشـع عينـاه بالكراهيـة هو ذلك الشـاب الوديع الرقيـق، لقد تحول بغتة إلى وحش آدمي لا يعبأ بالدماء.

اقـترب المنصور بحـذر إلى الحجرة التي ينام فيها سـيف الديـن، ولم يجـد أي عنـاء في الوصول إليها، حيـث تناهى إلى سـمعه صوت ذلك التاجر الثري وهو يترنـم بشعر هزلي أمام المـرآة التـي وقف أمامها يرجل شـعره الأشـيب، ويعدل من هندامه.

«ما بالك يا أم يوسف؟ أيقظي هذا الكسول حتى نذهب إلى السوق».

بهـذه الكلمات رفع سيف الديـن صوته حتـى يصل إلى زوجتـه، ولمـا لم يجد منها جوابًا كرر بصوت أعلى: أم يوسـف ألا تسمعين؟

همَّ بالخروج من الحجرة متوجسًـا إلا أنه قد وجد نفسـه قد انكفأ عـلى الأرض بعدما عرقلته رجـل المنصور، وما كاد يلتفت حتى وجد أمامه رجلًا ملثمًا يمسـك بسكين حاد وهو يقـول لو أبديت صراخًا غرسـت هذا السـكين في قلبك، هل تسمعني؟

هز سـيف الديـن رأسـه في هلع وقـد اتسـعت حدقتاه، وهو يتمنـى أن تصعد الجارية إليه من الطابق الأسـفل لتنشر صراخهـا بين الناس، أو أن يطالبه اللص بأموال يدفعها إليها وينـصرف، إلا أن المنصـور لم يجعله يستغرق في أمنيته حيث أمـره أن يميـل على بطنه ويضع يديه خلف ظهره، فشـد عليه وثاقة، ثم كمم فمه حتى لا يصدر أي صراخ.

أقامـه المنصـور بيديه القويتـين الغاضبتين فـكان الرجل بينهما كالطفـل الصغير، وأوقفه أمامـه، فمنحه المنصور نظرة أودعها كل مقت الدنيا، قد ازداد بها الرجل رعبًا وهلعًا.

وهنا كشف المنصور عن وجهه في بطء، والرجل قد ازدادت عيناه اتساعا حتى كادتا تبتلعان المكان من فرط الذعر، وهو يهز رأسه يمينًا وشمالًا ويصدر كلمات مكتومة.

المنصور: هل تعرفت عليّ أم أن الجراح والدماء التي غطت وجهي جعلتك لا تعرف من يخاطبك؟

أوما الرجل برأسه أن نعم، وجعل ينظر إلى المنصور نظرة استجداء ومال تجاه المنصور رغبة في أن يقبل يديه اعتذارًا، إلا أن الأخير قد لطمه على وجهه قائلًا في غضب وهو يضغط على أضراسه مخفضًا صوته:

«أهذا كل ما لديك؟ بهذه السهولة، تقضي على حياتنا، على سعادتنا، على شرفنا، وأحلامنا، وسمعتنا، ثم تريد أن تمسح كل ذلك بقبلة على يدي؟

حاول الرجل الكلام إلا أن القماش على فمه جعل الكلام مثل عدمه فلا يفهم منه شيء، فاستطرد المنصور: أغرتك سطوتك ومالك بانتزاع السعادة من قلوب الفقراء والضعفاء، لن يشفي غليلي أن أقتلك عشرات المرات، صمت برهة ثم تابع: لكني سوف أقتلك مرتين شر قتلة.

اقتاده المنصور إلى حجرة يوسف وهو يضع السكين على رقبتـه، فما إن دخل حتى وجد زوجته ممدة على الأرض مقيدة مكممة، فقال له المنصور: إنها على قيد الحياة، انظر ها هنا.

وجه المنصور رأس سـيف الدين تجاه سرير ولده، فإذ به يصدر صرخات عنيفة حجبتها الكمامة، وجعل ينفض رأسـه في عنـف وقد جثا على ركبتيه أمام جثمان يوسـف ووجهه إلى الأرض يصرخ ويئن.

أمسـك المنصور بشـعر رأسـه يجبره على النظـر إلى ولده القتيـل وهـو يقرعـه: الآن تفطـر قلبـك؟ الآن تحركت فيك المشـاعر؟ تلـك التـي كانـت هامدة يـوم قضيت عـلى أبي في السـوق، وأجهـزت عـلى أحلامنـا، ضاعـت مني سـمعتي، وعمـلي، وأصدقائي وأحبابي وعـروسي، ضاع كل شيء بذرَّة كبر وحقد مما في قلبك الأسود.

هز المنصور رأسـه في أسف وهو يقول: ولكنك ستكون أفضـل حالا مني، قد ذبحت أبي أمامي ولم يرحني الموت، أما أنت رأيتَ ولدك مذبوحًا لكنك لن تعيش مثلي لتتعذب.

قالها ثم مرر السكين على رقبة الرجل في عنف، انكب بعدها يشحط في دمائه، ليقف المنصور برهة على الجثتين بالحجرة وينظر إلى السكين الذي يتقطر منه الدم بذهول، وكأنما كان في سكرة أفاق منها، ووقع بصره على المرآة ليرى أمامه ذلك القاتل.

اقترب من المرآة ليمعن النظر في تلك القسمات الجديدة، فليس هذا وجه المنصور، وليست هذه نظرات عينيه، لقد صار رجلا آخر غير الذي يعرفه، وبدا له أنه قد دفن المنصور في تلك الساعة.

لملم المنصور أشياءه ووضعها في الجراب ثم نزل الدرج لكي يخرج من باب المنزل الرئيسي في هدوء، فاستوقفته جارية البيت: من أنت يا سيدي؟

أجابها وهو يشق طريقه بكل هدوء دون أن يلتفت إليها: أنا الطبيب، سيدك كان مريضا وداويته، وأرحته من العناء.

سابق المنصور الريح كي يصل في أسرع وقت إلى السوق قبل أن يتطاير نبأ الجريمة، فما هي إلا برهة حتى اقترب من

محل الشيخ زكريا والذي شارك سيف الدين وولده في تلفيق تهمة السرقة لهمام.

أقبل المنصور وهو ملثم على الشيخ زكريا والذي يجلس على باب دكانه فما إن وقف أمامه حتى اجتذبه بقوة واحتضن ظهره وطوقه بيده اليسرى، بينما كانت يده الأخرى تمسك بالسكين ووضعها على رقبة زكريا في وسط السوق، في الوقت الذي كان الناس يرقبون المشهد في ذهول.

«لو تحرك أي رجل منكم سوف أذبحه أمامكم»

قالها المنصور بصوت هادر وقد تجمع الخلق، فشق الصفوفَ الشيخُ حسان الرجل المسن وهو يقول: منصور يا ولدي، ماذا أصابك؟ دع الرجل وشأنه.

الشيخ زكريا: لو كنت تريد مالا يا منصور سأعطيك ما تريد، فقط لا تقتلني، لا تقتلني.

قال المنصور: أخبرهم أيها الوغد ماذا فعلت بوالدي وإلا قطعت أوداجك، تكلم.

كانت يد المنصور تمسك السكين بقوة وقد لامست بشرة زكريا فأحدثت له ألما جعله يجزم بأن المنصور جاد في تهديده،

فقال: حسنًا سأخبرهم، ارفع عني السكين يا منصور، تكاد تقتلني.

أجابه المنصور بصوته الجهوري الغاضب: ليس قبل أن تخبرهم بالحقيقة أيها الظالم، تكلم وإلا قطعت عنقك.

جعل زكريا يسرد على أسماع الناس تفاصيل المؤامرة التي دبرها سيف الدين، وشارك هو فيها بالبهتان والكذب والتلفيق، وما كاد ينتهي من كلامه حتى جعل الناس يضربون الكفوف على الكفوف ويسترجعون ويحوقلون، وهم يوجهون السباب إلى زكريا: ظالم، وغد، كاذب.

وهنا قال الشيخ حسان، أيها الناس قد سمعتم مقالته فاشهدوا عليه، سأبلغ الشرطة حتى ينال هؤلاء التجار جزاء فعلتهم، وأما أنت يا منصور، فسوف يقبل كل من في السوق رأسك ووالدك، واحمد الله يا ولدي أن كشف الحقيقة، دعه يا ولدي، دعه وستعاقبه الشرطة، لا تلوث يدك بدمه.

ضحك المنصور فجأة بشكل متصل وهو ما زال واضع السكين على رقبة زكريا وهو يقول: تتلوث بالدماء؟ لقد تلوثت بالفعل يا شيخ حسان.

ظل يضحك بشكل ظن معه الناس أن الشاب فقد عقله، فإذا بمناد يجهر في السوق بأعلى صوته: قُتل الشيخ سيف الدين وولده يوسف، قُتل الشيخ سيف الدين وولده يوسف.

الشيخ حسان في أسى: لماذا يا منصور؟ لماذا يا ولدي؟ لِمَ لمْ تصبر حتى يظهر الله الحق؟

كف المنصور عن ضحكاته التي انقلبت إلى بكاء، فجعل يقول بصوت يختلط بالأنين والدموع: فات الأوان يا شيخ حسان، لقد صنعتم مني مجرمًا وقاتلًا، فات الأوان، المنصور مات يوم ماتت كرامة والده بينكم، ولم يرفع أحدكم عنه الظلم، مات يوم شاهد بعينيه ذبح الحق تحت أقدامكم.

«منصور، لا يا ولدي، لا يا منصور».

قالتها أم المنصور وهي تدخل السوق مهرولة لا تستطيع التقاط أنفاسها، قد خرجت تبحث عن المنصور، فما إن رأته حتى وقعت أمامه أرضًا فرفعت رأسها إليه قائلة: لا يا ولدي، دعه، المنصور ولدي لا يسفك الدماء.

نظر المنصور إليها بحزن وهو يقول: لكنه قد فعل يا أماه.

الشيخ حسان: دعه يا ولدي وسلم نفسك للشرطة، وحتما سوف ينفعك ما شهد به الناس على براءتك.

أم المنصور: دعه يا ولدي، وأصغ إلى كلام الشيخ حسان، دعه يا ولدي.

المنصور بصوت يحمل كل أحزان الأرض: فات الأوان يا أم المنصور، فات الأوان، قبلي لي رأس والدي ويديه، وقولي له: لم تطب نفس المنصور أن يعيش وأنت منكس الرأس، وحياته فداء لك، سامحيني يا أمي واعتني بنفسك.

قالها المنصور وهو ينحر زكريا في عنف ثم ولى الأدبار، لا يعلم شيئًا عن وجهته، فقط كل ما كان يشغله أن يداوي الجراح، لكنه قد بدا له أن جراحه الغائرة لا تندمل.



أماني الغريــق

«حقًّا، إنها لقصة عجيبة، ومحزنة أيضًا».

كانت هذه أول تعليقات ابن عربي على القصة التي سردها على سمعه المنصور، والذي ما إن أتم كلامه حتى وضع رأسه بـين ركبتيه وأغمض عينيه، وكأنما قد أرهقه التجوال في ربوع الماضي.

سـأله ابـن عـربي: ولكـن يبقـى السؤال الـذي لم تجبني عليـه، كيف أصبحت قاتلا مأجورا وقاطع طريق يا منصور؟ واعذرني يا ولدي على فضولي فأنت لم تتطرق لهذه المسـألة في سرد قصتك، لا تؤاخذني يا منصور.

أجابـه المنصــور وهو عـلى وضعـه لم يبدلـه: لا عليك يا شيخ، إنها ساعات نقضيها سويًّا قبل أسبقك إلى الآخرة.

انتــزع رأســه من بـين ركبتيه وأخذ نفسـا عميقـا قبل أن يقول:

«ظللـت أعدو بعدهـا في طرق وعرة، وقفـزت إليَّ فكرة الاختبـاء بالجبـل، وعـلى الفور قطعـت إليه مسـافات طويلة بعيدًا عن أعين الناس.

أصدقك القول، ما إن وصلت الجبل وفارقت أهلي وأرضي حتى تمنيت الموت، ولم أكترث لأي مخاطر بعدها، لقد كانت الحية تمر بجانبي وكأني أناشدها أن تفرغ سمها في جسدي.

وقعت في يد عصابة في الجبل، أصابتهم الدهشة وهم لا يجدون أي أمارات للخوف على وجهي، بل قمت بسبهم وقتالهم بصدر عار وأنا أعرف أن بمقدورهم قتلي، لكن زعيمهم كان يقف ويرمقني، ولما تمكنوا مني وهموا بقتلي نهاهم، وضمني إلى رجاله.

مرت علي سنة كاملة كانت كفيلة بأن يجعلني الزعيم ذراعه الأيمن، فقد رأى شابا صغيرا لا يعبأ بالموت، يلقي بنفسه بين فكيه ولا يبالي، ومرت بعدها سنة أخرى، ذاع خلالها صيتي بين المجرمين وقطاع الطرق، وكنت أقوم أثناء وجودي مع تلك العصابة بمهام القتل بالأجرة حتى أصبحت فيه محترفًا.

ولم تمض سنة ثالثة حتى دب الخلاف بيني وبين الزعيم.

ابن عربي: لماذا؟

المنصور: كانت هواجس انتزاع الزعامة منه تؤرقه، فأراد أن يقطع علي الطمع في ذلك.

ابن عربي في شغف: كيف يا منصور، وماذا فعل؟

أجابه المنصور: استغل خطأ بسيطا وصفعني على وجهي وكال لي الشتائم والسباب.

اتسعت عينا ابن عربي بما ينم عن فرط اهتمامه بما يستمع إليه، فاستطرد المنصور بعدما أخذ نفسًا عميقًا: لكنني ذبحته أمام رجاله.

شهق ابن عربي قائلًا: قتلته؟ وأمام رجاله؟ يا لجرأتك، وكيف أتتك الشجاعة لفعل ذلك، أما خشيت أن يتكالبوا عليك ويقتلوك؟

ابتسم المنصور بسخرية وهو يقول: قلت لك، كنت أتمنى الموت فماذا يفعلون بي سوى تحقيق أمنيتي؟!

تابع المنصور: ساعتها وقفت أنظر إليهم وينظرون هم إلي في دهشة، وعلى غير المتوقع، بدلا من قتلي، جاءوا إلي يبايعوني على أن أكون زعيمهم، لكنني لم أشأ أن أكون زعيما لخونة، فارقتهم وتركت الأمر لهم يختارون من بينهم زعيما.

ابن عربي وقد بـدا كطفل صغير تحكي له أمة حكاية قبل نومه: وماذا فعلت بعدها يا منصور، تكلم يا رجل.

نهـض المنصـور مـن مكانـه بأغلالـه وهـو يمـشي ببطء وكأن رجليـه قد تعبتا من الجلوس، ثم قال: شـكلت عصابة بمواصفات خاصة، شباب صغار السـن من أقراني، لا أهل لهم ولا ذرية، كنا طوال سبع سنوات نعمل معا كفريق واحد، كأسرة واحدة، هم خير قتلة وقطاع طرق قابلتهم في حياتي.

قام ابن عربي وحذا حذو المنصور وتابعه في سيره البطيء في الحجرة، وهو يضيف إلى سجل تساؤلاته سؤالا آخر: وهل ذهبت إلى والديك في حلب مرة أخرى؟

هـز المنصور رأسـه قائـلًا: نعـم كنت أذهب خلسـة كل فترة بعيدة، كان أبي في البداية يشفق علي ويلتمس لي شيئًا من العذر في قتلي الرجـال الثلاثة الذين ظلموه، ورأى أني لم أكن في حالتي الطبيعية.

لكن بعدمـا ذاع صيتي بأني قاتل مأجـور وقاطع طريق، تبرأ مني، ولم يعد يرغب حتى في سماع اسمي.

ابن عربي: وماذا عن والدتك؟

ابتسم المنصور قائلًا: أمي لم تكن ناقمة علي، لكنها في كل مرة ترجوني العدول عن ذلك الطريق، ومرارا أخبرتها أنني سرت في طريق لا عودة منه، لكنها لم تيأس، وإني لأرجو أن تفعل.

أتعرف يا شيخ ما الذي أتمناه هذه الساعة؟

انتبه ابن عربي للكلمة وقال بفضول: ماذا تتمنى يا ولدي؟

ابتسم المنصور قائلًا: أتمنى أن يكون كلامك صحيحا، أن يكون الوجود شيئًا واحدًا، الموت والحياة، العدل والظلم، الجريمة والإحسان، الكفر والإيمان، صدقني أنا لا أخاف الموت، إنما أخاف لقاء الله فيسألني عن هذه الدماء التي أرقتها أنهارا، فماذا أقول له؟ أخاف النار التي توقفت عن التفكير فيها طيلة عشرة أعوام هي عمري في حياة الجريمة.

باغته ابن عربي بقوله: حتى النار والجنة شيء واحد يا بني.

أصابت المنصور دهشة عارمة فسأل الشيخ: وكيف ذلك يا شيخ؟

ابـن عربي: أهـل الجنة وأهـل النـار كلاهمـا متنعمون يا منصور، ثم أنشد قائلًا:

وإن دخـلـوا دار الـشـقـاء فإنهم
عـلـى لـذة فـيـهـا نـعـيـم مبـاين

نـعـيـم جـنـان الخـلـد، فـالأمـر
واحد وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عـذابًـا مـن عـذوبـة طعمه
وذاك له كالقشر والقشر صاينُ

بـدت الحـيرة على المنصـور وهـو يقول: ولكـن كلامك غريب على مسـامعي يا شـيخ، نعم أنا جاهـل بعلوم الشريعة وكنـت فقـط أصلي وأتجنـب الموبقـات، لكنه لم يكـن لي علم بالشريعة يجعلني أزن كلامك الآن، وفي الوقت نفسه أتمنى أن يكـون كلامك صوابًا، ولكن كيف؟ كيـف؟ أنّى لي بتصديق تلك الأفكار الغريبة التي لم أسمع بها يومًا في حياتي.

ابتسـم ابـن عربي قائلًا: يـا منصور اطمئن يـا ولدي، إن خدعتك فلن أخدع نفسي، وحتى يطمئن قلبك سـوف ألقي على سمعك حديثًا قدسيًّا لرب العزة تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وهنا انتفض المنصور وكأنه غريق ألقي إليه بحبل النجاة يتعلق به، فسأل الشيخ بشغف: نعم، إلي به شيخ.

ابن عربي: يقول الله تعالى: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»[1].

برقت عينا المنصور، فطرق الشيخ على الحديد وهو ساخن فأعاد الجزء الأخير من الحديث: (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها).

وعلق الشيخ قائلًا: إذا فهما شيء واحد، الحق تعالى هو سمع عبده وبصره ويده ورجله.

نظر المنصور في صمت إلى الشيخ، وتساءل وهو يحاول جاهدا إقناع نفسه بما سمع: إذا فلا عذاب ولا جحيم يا شيخ؟

(١) صحيح البخاري (٦٠٢١).

هز ابن عربي رأسه مبتسمًا: نعم يا ولدي، نعم، الوجود كله واحد يا منصور، فمن يعصي مَن والكل واحد؟

تهللت أسارير المنصور وهو يأمل أن يكون ذلك هو طوق النجاة بالنسبة إليه، لكنه سرعان ما قفز إلى ذهنه سؤال لم يدعه طرفه عين حتى أفضى به إلى الشيخ: ولكن يا شيخ إذا كان الوجود واحدًا، فلم كانت الزوجة حلالا والأم حراما؟

بدا الاضطراب على ابن عربي من ذلك السؤال المفاجئ، فأجاب سائله بقوله: هذا كلام المحجوبين يا ولدي الذين لم يفتحوا صدورهم للحق، هو حرام عندهم، هؤلاء أخذوا دينهم بواسطة النصوص يا ولدي، لا يدرك هؤلاء أننا نتلقى عن ربنا بلا واسطة، فهؤلاء لهم علم الظاهر، ولنا علم الباطن، علم الحقيقة التي لم يطلع عليها سوى الأصفياء

بدا الكلام غير مرض بالنسبة للمنصور، لكنه وجد نفسه يمر على هذه العبارة وهو يشيح بذهنه عنها، فاستطرد الشيخ: يا منصور (العارف من يرى الحق في كل شيء، بل في كل شيء، بل يراه عين كل شيء)[١].

---

(١) فصوص الحكم، ابن عربي، ص(١٩٢).

المنصـور وقـد بدأت السـعادة تتسـلل إليـه: إذا فمرحبا بالموت.

ابن عربي: نعم يا منصور، قل مرحبًا بالموت.

رفـع المنصـور رأسـه لأعـلى وهـو يقـول في خفـوت: يااااااارب، يااااااارب.



خواطر السحر

وفي جوف السحر بينما كان الوقت يزحف نحو الفجر الأخير الذي يؤذن بانتهاء حياة المنصور، كانت عيناه تبرقان طوال الليل بالأفكار التي تتقافز أمامه كأنها طفل لاه، وهو بينها يتقلب في صنوف المشاعر، ما بين لحظة تفاؤل، ولحظة قلق، وأخرى تحمل معها، برد اليقين، وأخرى تقذف بحمم الشك، وهو مع كل هذا لا تفارقه صورة كل من عرفهم وأحبهم في حياته وأطال حبل الوداد معهم.

وكأن هذه الليلة هي حصاد العمر، يجلس في سكونها الفصيح يقلب صفحات الأيام، وينظر في أفراح الصبا، وهموم الشباب، يطل على الأحداث وهو يجلس خارج إطارها، ويرى نفسه ها هنا وهنالك، يرى ابتساماته وأناته، يرى تقلبه في الأحوال، يرى البيت السعيد الذي سجلت جدرانه لحظات السعادة، ويبصر حضن الجبل الذي اقتلع الخوف من أحشاء قلبه وصيره أقسى من صخوره.

أخرج ابن عربي شيئًا من جرابه بجوار سريره وخطا به نحو المنصور، وربت على كتفه ينتزعه من شروده قائلًا: خذ يا منصور تناول تلك الحلوى، مذاقها طيب

ابتسم المنصور وهو يقول: ما هذا يا شيخ، هل أنت في سجن أم نزهة؟

بادله الشيخ ابتسامة مماثلة دون أن يبدي تعليقًا، فاستطرد المنصور وهو يتناول الحلوى: لم تخبرني يا شيخ محيي الدين، لماذا سجنت؟ ولم كل هذه الحفاوة التي يبديها حراس السجن، حتى طعامك يختلف عن طعام السجناء الذي نعرفه، أخبرني ما الأمر؟

أجابه ابن عربي: أنا لم أرتكب جرمًا يا منصور؟

نظر إليه المنصور في أسف وهو يقول: إذا فقد جئت هنا ظلما أيها الرجل الطيب.

هز ابن عربي رأسه نافيًا وهو يقول: ولا هذا أيضًا.

توقفت يد المنصور في الهواء وهو يرفع قطعة من الحلوى إلى فمه، وزوى ما بين حاجبيه في دهشة قائلًا: إذا فلماذا سجنت يا رجل؟

ابن عربي: لقد أتيت هنا برغبتي.

قالها ابن عربي دون أن يعبأ بالمنصور الذي فغر فاه من فرط الدهشة، فاستطرد الشيخ: تربطني بالوزير علاقة طيبة، وسألته أن يحضرني إلى هذا المكان لكي.....

لم يكمل الشيخ كلمته حيث رأى المنصور قد نهض من مكانه واقترب من الشيخ بعينين متسعتين عن آخرهما، ما جعل ابن عربي ترتعد فرائصه ويراجع كلماته التي صدرت منه علها تضمنت خطأ ما، إلا أن المنصور لم يتركه يسترسل مع الخواطر إذا مد كلتي يديه المقيدتين ببعضهما في حركة سريعة إلى الحائط أعلى رأس الشيخ، ليمسك رأس ثعبان كان يشق طريقه إلى أسفل من خلال طاقة صغيرة في الجدار.

تبسم المنصور وهو يمسك برأس الثعبان في مهارة مقيدا حركة ذيله كذلك، بينما انزوى الشيخ إلى الجدار يلصق به في ذعر، ما جعل المنصور يطلق ضحكاته العالية فترددها جدران السجن.

ابن عربي وهو يشير بأصبعه إلى الثعبان في ذعر: كيف استطعت إمساكه بهذه السهولة، ألا تخشاه؟

كف المنصور عن الضحك واستبدل به ابتسامة طفولية: عشت معها عشر سنوات يا شيخ، ألفت تكرار هذا المشهد مع ما هو أكبر حجمًا وأكثر خطورة منه، وكثيرًا ما لدغت من الحيات، وكثيرًا ما قتلت منها، هذا الذي أمامك أصغرها.

صمت المنصور بغتة كالذي تذكر شيئًا، جعل بعدها يضع الثعبان على الأرض ليزحف هاربا إلى جهة الباب ويمر من أسفله ليخرج من الحجرة.

ابن عربي صارخًا: هل جننت يا منصور؟ لماذا لم تقتله؟ كان من المحتمل أن يلتفت إلى أحدنا ويلدغه.

ابتسم المنصور قائلًا: ماذا دهاك يا شيخ؟ ألم تخبرني أن الخير والشر شيء واحد؟ فما بالك تعجب من صنيعي؟ أليس ذلك الثعبان هو أنت وأنا وهذا وذاك، وأن كل هذه الموجودات هي عين الرب؟ فلم تستنكر ذلك.

ابتسم ابن عربي وهو يقول: لقد مخرت في بحر المعرفة بسرعة يا منصور، إنني حقًّا لفي حزن وأسف لأن مثلك لن يتاح له المزيد لكي يتعلم أكثر وأكثر.

تلاشت ابتسامة المنصور، وقد بدا له الموت قريبا، فأسند ظهره للحائط وفتح عقله مرة أخرى للخواطر والأفكار تتقاذفه فيما بينها، كان أشدها عليه ذلك الموت الذي لا يفصل بينه وبينه سوى بعض خطوات قصيرة.

«ترى كيف يكون الموت يا منصور؟ وأين أنت غدًا؟

أنـا غدًا في النعيم، فأهل الجنـة والنار كلاهما منعمون كما قال الشيخ.

هل أنت على يقين من ذلك يا منصور؟

نعم هذا هو الحق.

فلماذا يضطرب قلبك ويهيم هكذا لا يقر له قرار؟

لا أدري، لا أدري».



صرخة اليقين

اخترقت عينا المنصور طاقة صغيرة إلى أفق السماء التي تلبدت بالغيوم، وهو يرتقب دخول الحراس عليه لاقتياده إلى حيث النهاية.

ولم يثنه ذلك المشهد عن سؤال الشيخ: لم تخبرني يا شيخ، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ابن عربي: أمر يطول شرحه يا منصور، لكن حسبك أن تعرف أني لي أعداء وأقرانا يريدون إلحاق الأذى بي، فطلبت من الوزير أن آتي إلى هذا المكان لأتمكن من تحقيق أمرين: الحماية والخلوة.

هز المنصور رأسه فاستطرد الشيخ: منصور يا ولدي، سأخرج من هنا في غضون أيام، فهل من رسالة تحب أن ترسلها إلى والديك؟ إن شئت سافرت إلى حلب وأديت ما تريد.

هز المنصور رأسه في عنف قائلًا: لا يا شيخ، دعهما وشأنهما، فبم تخبرهما؟ بموتي فيفجعا لذلك؟ أم تخبرهما أني على قيد الحياة فيموتان ببطء من طول انتظار؟

ابـن عربي: إني قلبي ليتفطر عليك حزنًا يا منصور، ليتني عرفتك قبل الليلة يا ولدي.

أشاح المنصور بوجهه في بطء ليعاود النظر إلى السماء من خـلال الطاقة في الجدار، ومـا هي إلا لحظات قضاها المنصور في شرود، حتى بدا صوت خافت يتسلل إلى أذنيه، إنه صوت المنادي يؤذن لصلاة الصبح.

تبـادل الرجلان نظرة طويلة صامتـة ذات معنى، قبل أن يطبـق المنصور جفنيه ويسـبل دمعة دافئة قـال على إثرها: إنها النهاية، عجيب هو انتظار الموت والزحف إليه.

اقـترب ابن عربي من المنصور وهـو يقول: الموت والحياة كلاهما واحد، مجرد صور يا ولدي.

هز المنصور رأسه موافقًا ثم قال: نعم أدرك ذلك يا شيخ، لكن الشعور به أمر هائل.

صمـت برهة ثم قال وهـو يجفف دموعه: هلا صليت بي ركعاتي الأخيرة يا شيخ؟

أوما ابن عربي برأسه، ثم نهض الرجلان وتوضآ للصلاة، وما هي إلا لحظات حتى افتتحا صلاتهما، ليقرأ الشـيخ سورة

الفجر على ركعتي الصبح، وسالت دموع المنصور على وجنتيه وجعل يشهق في صلاته وهو يشعر أن الحياة ضاعت، وأنه مقبل على ربه.

جلس بعد الصلاة يستغفر ربه ويذكره، وهو يصغي سمعه يرتقب وقْع خطوات تتجه ناحية حجرة سجنه، وقد مرت عليه كل ذكريات حياته القصيرة أمام عينيه، كل هذا وابن عربي يحملق طويلًا في ذلك الشاب الحلبي الذي تفتت قصته الأكباد كمدًا.

بدت تباشير الصباح وما زال المنصور يلهج لسانه بالذكر، إلا أنه توقف بغتة وقد اتسعت حدقتاه وحانت منه نظرة إلى الباب حملت مزيجًا من الرعب والحزن معا.

صوت الخطوات يتعالى ويتعالى، ومعها يخفق قلب المنصور، أقدام الحراس تتوقف على الباب، إنه يحبس أنفاسه وهو يستمع إلى رنين المفاتيح تصطك ببعضها، وصوت يصدر عن القفل عندما لامس الباب الحديدي، صوت آخر لا ريب أنه المفتاح يشق طريقه إلى فتحة القفل.

المنصور يتسارع نبضه وهو يسمع صوت المزلاج يتحرك من مكانه ليصدر تلك الضوضاء المعهودة، ها هو الباب يفتح ببطء قاتـل، وصريره يزلزل كيان المنصـور، والذي نظر بهلع إلى الحارسـين وهما يدخلان الحجرة في منظر مهيب، ومشهد قطـرات المطـر الـذي بدأ يهوي من السـماء بشـدة قـد تراءى للمنصور من خلال الباب المفتوح.

«حان الوقت يا منصور».

نطق بها أحد الحارسين بصوت بدا كهزيم الرعد في نفس المنصـور، والـذي التصـق ظهـره إلى الحائط بحركـة عفوية، ليشعر بيد الشيخ تربت عليه دون أن ينطق بكلمة.

حـاول المنصور أن يسـتجمع شـجاعته في ذلـك الموقف مستدعيا كل ما ألقاه الشيخ على مسامعه، وبدا كأنه قد تسلل شيء من الطمأنينة إلى قلبه.

نهـض مع الحارسـين في صمت ثـم التفـت إلى ابن عربي وهو يقول بعينين تتلألأ فيهما الدموع: الوجود واحد يا شـيخ أليس كذلك؟

أومأ ابن عربي برأسه قائلًا: بلى يا منصور، بلى يا ولدي.

أسبل المنصور دموع عينيه وهو يقول: أهل النار والجنة كلاهما منعمون أليس كذلك؟

هز ابن عربي رأسه في هدوء دون أن يتكلم، فحانت ابتسامة تتردد في الظهور على وجه المنصور، فهال يعانق الشيخ الذي شهد معه آخر وأغرب ليلة قضاها في حياته.

«هيا يا منصور».

نطق بها الحارس وهو يمسك بعضد المنصور، والذي بالكاد تحمله قدماه، وبدا وهو يسير بين الرجلين كأنه يخطو خطواته الأولى في زمن الطفولة.

وما إن صار بالخارج في العراء حتى التفت إلى الوراء ليطالع ابن عربي للمرة الأخيرة ليبادله الأخير نظرة وداع صامتة ليحول بينهما الباب الذي أوصده الحارس في بطء.

وقف المنصور بين الحارسين على باب السجن دون أن يسألهما عن سبب الانتظار، ليرفع المنصور وجهه إلى السماء التي لبدتها الغيوم، وقطرات المطر تغشى وجهه، وتنطلق من قلبه على لسانه كلمة: يااااارب، يااااارب.

أعـاد بـصره إلى الأرض بينـما ترعد السـماء وتبرق وهي تـزف غيثها، ليعاود المنصور بحركة مفاجئة نظره إلى السـماء، ويكرر: ياااااااارب، يااااااااارب

جعـل المنصـور يكررها في ذهـول، وقد اتسـعت عيناه، كالذي تذكر شـيئًا منسيًا أو اكتشف حقيقة خافية، أو اصطاد خاطـرة عظيمة، ليغرق بعدها في التفكير، بينما كانت قسـمات وجهه تعكس مشاعر تتقلب ما بين الدهشة والفرحة والحزن والخشوع، حتى خرج من صمته:

«يا شيخ محيي الدين، يا شيخ محيي الدين».

صرخ بهـا المنصـور بأعـلى صوتـه مـا جعـل الحارسـين يطالعانه بدهشة وهو يستطرد: يا شيخ محيي الدين.

أجابـه ابن عربي من خلـف الباب بلهفة: نعم يا منصور، نعم يا ولدي، هل تريد أن تقول شيئًا؟

عاود المنصور صراخه لكنـه قد امتزج هذه المرة بالبكاء: أنت بطال يا شيخ، أنت بطاااااااال.

نزلـت الكلمات عـلى أم رأس الشـيخ كالصاعقة، والتزم الصمـت في دهشـة عارمة بينما كان المنصـور يواصل صراخه وبكاءه: كلامك باااااااطل يا شيخ، كلامك بااااااااطل.

ومن وراء الباب كان ابن عربي صامتًا فاغرًا فاه، يظن أن المنصور قد ألمّ به جنون من هول الموقف، فتابع الأخير بأعلى صوته: الوجود ليس كما تقول يا محيي الدين، هناك الرب رب في السماء، والعبد عبد على الأرض، هو ليس أنا وأنا لست هو.

ازداد المنصور صراخًا وعويلًا ودموعًا وهو يردد هذه الكلمات، ثم بدا يخفض من صوته قليلًا وهو يتابع: أنا جاهل بشريعة الله نعم، لكني أعرف أنه جبلني على أن أرفع رأسي واتجه ببصري نحو السماء كلما ناديته من كرب وشدة.

علا تدريجيًا بصوته الباكي المبكي: أنا جاهل بشريعة الله نعم، لكنني أدرك أنه لم يكن ليرسل رسله وينزل كتبه لعباده، فيسلك بعضهم طريق النبيين ويسلك البعض الآخر طريق الهوى، ثم يساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء.

كانت الكلمات تسيل على شفتي المنصور وكأنه قد أشرب العلم والحكمة فجأة، لقد كان يشعر أن شيئًا ما تفجر في أعماقه فأشرقت نفسه بتلك العبارات التي كاد ابن عربي أن يغشى عليه وهو يستمع إليها من فرط الدهشة.

وظل المنصور يصرخ بأعلى صوته حتى كاد أن يبح فاستطرد: أنا جاهل لكنني أوقن بأنك لست أفضل من أصحاب رسول الله حتى يؤثرك بعلم دونهم كما زعمت.

أنا جاهل لكن الله بصرني بأنه لو كان ما تقول حقًا لاشتهر عن أصحاب النبي وتابعيهم وعن علماء المسلمين في أقطار الأرض.

قالها وقد بح صوته بالفعل، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة حديثه وبكائه أيضًا: أنا جاهل لكني أعلم أن الله تعالى ما كان بجلاله وعظمته أن يكون هو عين الرهبان والكلاب والشياطين وأن تكون هي عينه.

قاتلك الله يا إبليس البشر، كدت لتردين في الهاوية، فتنتني بمعسول حديثك، قمت باستغلال جهلي بدين ربي، لكنه أرحم الراحمين أيقظ شيئًا في أعماقي وانشرح صدري لكل كلمة تفوهت بها الآن.

بدا صوته حزينًا خافتًا وهو يقول للشيخ المدهوش: سوف أقبل على ربي معترفًا بجرمي، وظني به أنه سيقبلني ويغفر زلاتي وغدراتي.

وما إن أتم المنصور حديثه المختلط بالأنين، حتى أتى حارس ثالث لينطلقوا بالشاب ابن الثلاثين ربيعا، إلى حيث ساحة الإعدام.

وفي الوقت الذي افترش ابن عربي الأرض مسندا ظهره ورأسه إلى الباب في دهشة، كان المنصور يسير على قدميه بين الحراس وقد بدت عليه علامات الخشوع والطمأنينة، قد ترك جسده ليسوقه الحراس تحت المطر المنهمر وتلاحم البرق مع صوت الرعود، فرفع رأسه يجوب السماء بنظرة رجاء، وهو يخطو خطواته الأخيرة صوب الموت، فينطلق لسانه بتكرار ذلك النداء الذي تجلت فيه أنوار اليقين: يااااارب، يااااااااارب، ياااااارب، يااااارب..........



غريب وسكن القبور

دخل بشير قائد الشرطة الجديد على الوزير وهو يلقي التحية ويسرد عليه أحوال الأمن في دمشق، فسأله الوزير بغتة: ماذا عن ذلك الغريب الحلبي قاتل جعفر؟

أجابه بشير على الفور: لقد نال جزاءه العادل الذي وقَّعَه قاضي البلاد، تم قتله يا مولاي، ودفن في الصباح.

الوزير وهو يحك ذقنه: لست أدري لماذا أرى الغموض يحيط بهذه القضية يا بشير؟

سيطر بشير على انفعالاته إثر هذه الكلمات وكسى صوته بالهدوء وهو يقول: الأمر جلي يا مولاي، قاتل غريب عن البلاد جاء يمارس إجرامه في دمشق المحروسة، وانتهى به الأمر إلى أن يسكن القبر، هذا كل ما في الأمر.

الوزير: هل بحثت في وجود أي صلة سابقة بينه وبين قائد الشرطة السابق جعفر؟

بشير: بالطبع يا مولاي، هذا أمر لن يفوتني قطعا، وتبين أنه مجرد حادث سطو، إلا أن جعفر قد استيقظ من نومه وحاول التصدي له فتغلب عليه المجرم.

الوزير: هل أنت واثق يا بشير أن هذه القضية مرت على ما يرام دون أي ثغرات توقعنا في الحرج لاحقًا؟

هز قائد الشرطة رأسه قائلًا: فليطمئن مولاي الأمير، ورقبتي لكم فداء.

تذكر الوزير شيئًا ما فسأل قائد الشرطة: وماذا عن الشبان المتآمرين لقتل ابن عربي؟

رسم بشير ابتسامة مصطنعة على وجهه وهو يقول: مولاي الوزير رغم مهامه الجسيمة لا يفوته أمر من أمور البلدة والرعية؟

هز الوزير رأسه مبتسمًا فاستطرد قائد الشرطة، لقد حكم على كل منهم بالسجن خمسة عشر عامًا يا مولانا الوزير.

الوزير: أحسنت يا قائد الشرطة الهمام، يبدو أنك كنت ثروة مهدرة طيلة السنوات الماضية، والآن أستطيع أن أنتظر مقدم مولانا الملك الأشرف في هدوء.

وفي ذات الوقت كان الشيخان ابن سلام والصالحي يجلسان سويًا في الجامع الكبير بعد صلاة العشاء، يتجاذبان

أطراف الحديث عن ذلك الشاب الغريب الذي مات وخلف وراءه الحيرة والدهشة.

عبد العزيز بن سلام: لقد نزل عليّ الخبر كالصاعقة رغم أنني كنت أعلم أنه سوف يُقتل يقينًا.

الصالحي: صدقت يا شيخ، هذا الشاب قد أرّقني فراقه رغم أنني لم ألتق به سوى مرة واحدة، ولكن شاب بهذه المروءة والرحمة يقدم على القتل من أجل السرقة؟ لماذا؟ لا أصدق، قلبي يحدثني أن في الأمر شيئًا ما.

ابن سلام: أنا أتفق معك فنفس الشعور يراودني، لكن الأمر قد انتهى، والشاب الغريب صار الآن في قبره، أسأل الله أن يتجاوز عنه ويغفر له زلاته.

أمّن الصالحي على الدعاء فعاجله جليسه بسؤال مفاجئ: وكيف حال أحمد يا شيخ؟

الصالحي: الحمد لله على كل حال، لقد وضعته اليوم في البيمارستان[1] كما أخبرتك بالأمس، فهناك سيلقى الرعاية بصورة أفضل.

---

(١) البيمارستان: كلمة تعني مستشفى أصلها فارسي ومعناها «محل المريض». كان للبيمارستانات في العصور الوسطى دُورٌ للعلاج وكانت =

صمت الصالحي برهة ثم استطرد: ذلك الفتى يذبحني مرآه في الغدوة والروحة، ليس بالحي ولا بالميت، ولكن من يدري، عسى الله أن يجعل لسقمه شفاء.

ابن سلام: أسأل الله أن يشفيه من كل داء، وأن يتغمد برحمته ذلك الشاب منصور.

الصالحي: آمين، آمين.



=أيضًا معاهد لتدريس الطب، تعالج فيها الأمراض الباطنية والرمدية والعقلية وتمارس فيها العمليات الجراحية (موسوعة ويكيبيديا باختصار وتصرف).

المناظـــرة

دمشق بعد عشر سنوات، عام ١٢٤٠م

خطا ذلك الرجل ذو العباءة السوداء داخل أحد أحياء دمشق، وهو يسأل عن منزل الشيخ محيي الدين بن عربي، وما إن دله الأهالي عليه حتى طرق الباب في أدب.

فتحت جارية البيت ليقول الرجل: أرغب في مقابلة الشيخ، لقد جئت إليها زائرًا من سفر بعيد.

دخلت الجارية لتخبر سيدها فما هي إلا لحظات، حتى خرجت إلى الزائر وهي تقول له: الشيخ يأذن لك في الدخول، ولكن لا تطل عليه فهو مريض.

أومأ الزائر برأسه دون أن يتكلم موافقًا، فتبع الجارية التي أوصلته إلى حجرة الشيخ ابن عربي، فيدخل ليجد أمامه شيخًا قد أكله الهرم، اشتعل رأسه شيبًا وغارت عيناه، قد تمدد على فراشه، قائلًا بصوت واهن يدل على ضعف صاحبه: تفضل يا بني، أهلًا بك وسهلًا.

الزائر: أهلا بك شيخ، كيف حالك؟ أخبرتني الجارية أنك مريض.

ابـن عربي وهو يسـعل، لا شيء سـوى أمـراض الهرم يا بني، كفى بها أمراضا على الجسم مسلطة.

«يا نائلة».

نادى ابن عربي على الجارية والتي سرعان ما دخلت على الشيخ وضيفه، فقال لها: فلتعدي الغداء لضيفنا.

الزائر: تناولته منذ قليل يا شـيخ، شـكرا لك، فأشار ابن عربي للجارية بالانصراف، ثم سأل ضيفه: من أي البلاد أنت يا ولدي؟

أجابه الرجل: أتيت من غزة يا شيخ.

ابن عـربي: أهلًا بك ومرحبًا يا ولدي، هلا أخبرتني عن سبب تلك الزيارة؟

الزائر: أتيت لكي أسدي لك النصح يا شيخ.

انطلقـت من ابـن عربي ضحكـة قصيرة جلبـت وراءها الكثير من السعال، قال بعدها: أتيت من غزة إلى دمشق لكي تنصحني يا ولدي؟ لا ريب أنها نصيحة نفيسة حتى تقطع من أجلها تلك المسافات.

الزائـر: نعم إنها كذلك، فنصيحتي إليك أن تعود لحظيرة السنة، وتلفظ عقائدك الفاسدة.

ابن عربي: عقائد فاسدة؟ وما ذاك يا...

الزائر: أبو عبد الله.

ابن عربي: عن أي عقائد تتحدث يا أبا عبد الله؟

الزائـر: زعمك وحـدة الوجود، وأن العبـد رب والرب عبـد، وأن فرعون كان محقًّـا إذ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، قرأت كل كتبـك عـلى رأسـها (فصـوص الحكم) الـذي زعمت أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أعطاكه في منامك لتبلغه للناس.

تبسـم ابن عربي لتبرز تجاعيد وجهه الذي ارتسمت عليه آثار الزمن وهو يقول: وما قولك أنت يا أبا عبد الله؟

أبـو عبـد الله: قولي مـا قال بـه الأولون والآخـرون، الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مسـتو عـلى عرشـه بائن مـن خلقـه، خلقهم من تـراب، وأوجدهـم في الدنيا لكي يعبـدوه وحده ولا يشركوا به شـيئًا، وأنزل لهم الكتب وأرسـل إليهم الرسـل يهديهم إلى طريق مستقيم، فمن سلكه دخل الجنة جزاء طاعته، ومن حاد عنه دخل النار جزاء عصيانه وتمرده

قاطعـه ابن عربي قائـلًا: وما قولـك في الحديث القدسي الذي يقوله فيه الرب تعالى...

قاطعـه أبو عبد الله قائلًا: نعـم قوله الله تعالى: «من عادى لـي وليًـا فقد آذنته بالحـرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشـيء أحب إلـيَّ مما افترضـت عليه، وما يـزال عبدي يتقرب إلـيَّ بالنوافل حتـى أحبه، فـإذا أحببته كنت سمعه الذي يسـمع بـه، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مسـاءته، ولابد له منه»[1].

استطرد الزائر: نعم، أعلم أنك قد برهنت به على عقيدتك في كتبك، ولكن الحديث نفسه يرد عليك من عدة وجوه.

ابن عربي وقد زوى ما بين حاجبيه: كيف ذلك؟

تبسـم أبـو عبد الله ثم قـال: أولا في قولـه: «من عادى لي وليًـا فقد آذنتـه بالحرب»، فقـد أثبت الله ثلاثة: أثبت نفسـه،

(١) سبق تخريجه.

وأثبت وليه، وأثبت معادي وليه، ويستحيل أن يكون الموالي والمعادي شيئًا واحدًا.

وأما الوجه الثاني: فمن قوله تعالى: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه» فأثبت عبدًا يتقرب إلى ربه، وأثبت ربًا يفترض على عبده فرائض.

كان ابن عربي يحملق بصمت في ذلك الزائر الذي جاء يناظره في أواخر عمره، إلا أن الأخير تابع كلامه متصلًا:

وأما الوجه الثالث: فمن قوله: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى احبه» فأثبت الله عبدًا يتقرب وربا يُتقرب إليه، وأثبت محبًا ومحبوبًا).

وأما الوجه الرابع وهو أهمها ولكن دعني أسألك سؤالًا: أنت تقول أن الوجود واحد، وأن العبد هو عين الرب، وهذا قطعا في كل وقت وحال وفق ما تعتقد أليس كذلك؟

هز ابن عربي رأسه موافقًا وقد خيم عليه الوجوم: بلى.

أبو عبد الله: حسنًا، الوجه الرابع وهو أهمها: من قوله تعالى: «فإذا احبيته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها».

فـالله تعالى جعل لعبده هذه الأمور بعد محبته ليس قبلها، وهذا يناقض ما ذكرته أنت[1].

ولكنـك جئـت بمفهوم للحديـث يبرأ من الله ورسـوله والصحابة والتابعون وعلماء الإسلام المتبعون هدي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن الحديـث دلالاتـه واضحة لأولي الألبـاب، فمفهومه أن العبـد إذا أدى مـا افترضه الله عليه مـن فرائض، ثم أتبعها بالنوافـل، نـال المحبـة مـن رب العالمين، فحينئـذ يسـدد الله جوارحـه للعمل بما يحبه الله، «فيسـدد سـمعه فلا يستمع إلا لما يرضي الله، ويسـدد بصره فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله النظر إليه فلا يمتد بصره إلى الحرام، ويسدد يده فلا يعمل بها إلا ما يرضي الله، ويسدد رجله فلا يمشي بها إلا في مرضاة الله»[2].

يا شيخ، الله تعالى قال في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، فهـو قـد أثبـت وجـود

---

(١) مستفاد من: مجموعة فتاوى ابن تيمية (٢/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين (١/ ١١٥)، بتصرف يسير.

أشياء غيره، وإلا لما كان لِنَفْي المثلية عنه داع، ثم تقول أنت أن الوجود شيء واحد؟!

صمت ابن عربي ثم أغمض عينيه في إرهاق، فقال الزائر: يا شيخ، انظر إلى نفسك، أجنحة الموت ترفرف حواليك، فتب إلى الله قبل أن تقبل عليه ويسألك عما قلت وفعلت واعتقدت، واحذر أن تكون من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

لم يتكلم ابن عربي بكلمة واحدة، فوقعت عينا الزائر على كتاب بجوار ابن عربي، فأمسكه ونظر في عنوانه وهو يقول: (فصوص الحكم)، أهذا ما زعمت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاكه في المنام لتبثه بين الأنام يا شيخ؟

هز ابن عربي رأسه في صمت واهن، فتابع الرجل: أسألك بالله يا شيخ، ما تضمنه هذا الكتاب على فرضه نسبته للرسول، أهو شيء جاء به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلمه أصحابه؟ أم هو شيء قد اختصك به دونهم؟ فإن قلت جاء به وعلمه أصحابه فقد كذبت، فلا هو قد ورد في القرآن ولا هو قد ورد في السنة، ولا وصل إلينا من طريق صحابة

رسـول الله، وإن قلـت أنـه اختصك به، فقـد افتريت على الله الكذب، وكذبت ما نزل من القرآن على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

«هلا كففت عن الحديث».

قالها ابن عربي في وهن، فتابع الرجل وكأنه لم يستمع إليه: أضـف إلى ذلك أيها الشـيخ، أنك لسـت أفضل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تحوز هذا الفضل دونهم، وهـم الذين قال عنهم النبي: «خير الناس قرني»[1].

نظـر الرجـل إلى ابـن عـربي الذي عـاود تغميـض عينيه وكأنـه يتقي حر الكلمات التي يصبها الزائر على مسـامعه، إلا أن الضيف اسـتأنف الحديث: أمعن في حديثي يا شـيخ محيي الديـن، والزم ما كان عليه صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عد إلى الحق.

تنفس الزائر بعمق ثم قال: ألا تعرفني يا شيخ؟

(١) متفق عليه.

تأمل الشيخ في قسمات الرجل ثم هز رأسه نفيًا: لا أظن أننا التقينا قبل ذلك.

تبسم الزائر ثم قال: ارجع بالذاكرة إلى عشر سنين مضت، أنا المنصور بن همام.

ابن عربي: المنصور من؟

المنصور: رفيقك ذات ليلة في السجن من عشر سنوات، هل تذكرتني؟

اتسعت عينا ابن عربي في ذهول وهو يقول: المنصور الذي قتل قائد الشرطة؟

هز المنصور رأسه قائلًا: نعم أنا هو.

صرخ ابن عربي في ضعف: كاذب، كاذب، المنصور قد أعدم، لقد ذهب أمامي إلى ميدان الإعدام، أنت محتال، اخرج من بيتي.

ابتسم المنصور في هدوء وهو يقول: هل رأيت جثماني بعينيك؟

عاود ابن عربي صراخه وهو يقول: لا، ولكن الحراس أخبروني بأنك قتلت ودفنت أيضًا.

عاود المنصور سؤاله: هل رأيتهم يقتلوني أو يدفنوا جثماني؟

هز ابن عربي رأسه نافيًا ثم قال: لا، ولكنك لست المنصور، أنت تكذب.

جعل المنصور يذكره بأحداث تلك الليلة التي قضاها مع ابن عربي في حجرة السجن بكل تفاصيلها بما جعل الشيخ يوقن أنه المنصور ذاته، ثم حرك رأسه يمينًا وشمالًا في دهشة: ولكن كيف لم تمت؟

مط المنصور شفتيه ثم رفع أصبعه إلى السماء قائلًا: إنها إرادة الله يا شيخ، لم يكن ذلك ميعاد لقائي بالموت، ولكل أجل كتاب.

ابن عربي بلهفة غمرت ملامح وجهه المجعد: أخبرني يا منصور كيف نجوت؟ ومالك تتحدث كالعلماء؟ مالك وللمعرفة، لقد تركتك جاهلًا وخلتك مت جاهلًا.

ابتسم المنصور وهو ينهض: ذلك أمر يطول شرحه يا شيخ، وأرى أن طول الحديث يرهقك، سوف أدعك لتستريح.

استوقفه ابن عربي بإشارة يده وهو يقول: لا لا يا منصور، لن تغادر حتى تخبرني بما كان من أمرك.

ضحك المنصور قائلًا: إذا فالشيخ لم يفارقه فضوله بعد.

جلس المنصور مرة أخرى، وهو يقول: حسنًا سأخبرك يا شيخ سأخبرك.

قفز المنصور بذاكرته إلى الوراء قبيل عشر سنوات، وجعل يحكي للشيخ قصة نجاته من الموت، ويحكي ويحكي ويحكي.....



الرهينـــة

عاد رئيس حرس السجن شهاب إلى داره عقب صلاة العشاء، بعد أن أمضى اليوم بأكمله في العمل، فما هو إلا أن دخل بيته، حتى فوجئ بزوجته تهرول تجاهه وهي تبكي وتنوح، فسألها بفزع: ماذا هنالك يا امرأة، ما الذي حدث؟

أجابته زوجته: أدركني يا شهاب، ابنك «عليّ» لا أدري إلى أين ذهب؟ منذ الزوال وأنا أبحث عنه، ولم أجد له أي أثر.

شهاب وقد وقع عليه الخبر كالصاعقة: ولدي؟ ولماذا لم ترسلي إلي في السجن؟ لم انتظرت طوال هذه الفترة.

أجابته زوجته وهي تضع يديها على خديها قائلة: استغرقت وقتًا طويلًا في البحث، ورأيت أن أنتظره في البيت ربما يعود في أي وقت.

شهاب: هل سألت أقاربنا؟ ربما يكون قد ذهب لأحد أبنائهم.

الزوجـة: لم أدع أحـدًا نعرفـه من الأقـارب والجيران إلا وقد سألته دون جدوى.

ترك شهاب نفسه يهوي على فراشه قاعدًا وهو يفكر مليًّا في الأمر، وما هي إلا لحظات حتى طرق الباب، ففزع شهاب يفتحـه بسرعة، ليجد أمامه «جابـر» أحد رجال المنصور وهو يقول بهدوء: أنت أبو «علي» أليس كذلك؟

هز شهاب رأسه: بلى، أنا والده، هل رأيت ابني؟

هرولـت الزوجة مسرعة إلى جابر وهـي تعيد عليه ذات السؤال السابق.

«أبي، أبي».

نطـق بها صبـي في الثالثة عشر من عمره، من أمام المنزل، ليفتح شهاب النافذة بسرعة وهو يقول: ولدي، الحمد لله.

نـزل شـهاب بسرعـة البرق لـيرى ولـده الوحيـد، لكنه سرعـان مـا دب الفزع في كيانه مـن جديد وهـو يلتفت يمينا وشـمالا ويصرخ: علي، علي، بينـما كانت الأم تشرف عليه من النافـذة وتسـأل في هلـع: مـاذا حدث يـا شـهاب، أين ذهب علي؟

أخذ جابر بعضد شهاب وهو يقول: ابنك بخير، فاستمع إلي جيدا.

أمسك شهاب بتلابيب جابر وهو يقول: من أنت؟ وأين ولدي؟ تكلم وإلا قتلتك، ألا تعرف من أنا؟

أبعد جابر يدي شهاب بهدوء وهو يقول: أنت شهاب رئيس حراس السجن، وولدك لدينا، وأعدك إن مسستني بسوء ألا ترى ولدك طيلة حياتك.

قال شهاب: فمن أنت إذن ولماذا اختطفت ولدي؟ كم تريد من المال؟

ابتسم جابر وهو يقول: بل جئت لأعطيك المال.

نظر إليه شهاب في دهشة وهو يقول: أنا أريد ولدي.

جابر: وأنت قد رأيته وسمعت صوته وعلمت أنه بخير، وسوف يكون بين أحضانك غدًا صباحًا.

شهاب وهو يقول بمزيد من الدهشة: ولم لا يكون الآن، وماذا تريد منه؟

ابتسم جابر مرة أخرى وهو يقول: نريدك أن تسدي لنا معروفا، وفي المقابل سوف نرد عليك ولدك، ونعطيك من الأموال ما يكفيك طيلة حياتك، مجرد عمل بسيط.

شهاب: وما ذاك؟

أخذ جابر بعضده وسارا سويًّا إلى أرض فضاء، بعد أن أشار شهاب لامرأته أن تعود إلى الداخل واعدًا إياها بإحضار ولدها.

جابر: لديك سجين سوف يتم قتله صباحا، اسمه المنصور، أليس كذلك؟

شهاب: ذلك الرجل الذي قتل قائد الشرطة، بلى، ما شأنه؟

جابر: معي ستة من الرجال، كلنا لا يتوانى في أن يفتدي المنصور بنفسه، لا يجب أن يموت في الصباح.

شهاب وقد اتسعت حدقتاه: ما هذا الهراء؟ أنت تهذي، تريد مني إطلاق سراح مجرم قاتل؟

جابر: إذا فلتنس ولدك.

استل شهاب سيفه وهو يضعه على عنق جابر قائلًا بغضب: اصطحبني إلى حيث ولدي أيها الحقير وإلا قطعت رقبتك.

ابتسم جابر في هدوء غير عابئ بذلك السيف على رقبته قائلًا: ألم أقل أننا لا نتوانى في أن نفتدي المنصور بأرواحنا؟ افعلها يا رجل، هيا افعلها، وأكرر لك وعدي بأنك لن ترى ولدك بعد اليوم.

شهاب وقد وضع سيفه في غمده قائلًا في هدوء وحيرة: ولكن ما تطلبه مني عسير.

رد عليه جابر على الفور: لكن ليس بمستحيل.

شهاب وقد تملكته الحيرة: وكيف لو عرف الوزير أو حتى قائد الشرطة بالأمر، وكيف سأخفي الأمر عن الحراس في السجن؟

ابتسم جابر في دهاء وهو يقول: الأموال تكمم الأفواه، سوف نعطي لك مالًا وفيرًا يجعلهم يغضون الطرف عن أي شيء يحدث حتى لو فر السجناء بأسرهم، والباقي سوف يكون لك، تنعم به، وتعيش ثريًا طيلة حياتك، وحتى يطمئن قلبك وتتبين صدق حديثي، سوف تعود إلى بيتك الآن لتجد فيه الأموال، نحن نريك منا حسن النية والقصد.

شهاب: أمهلني حتى أفكر في الأمر.

جابر في حزم: ليس هناك وقت، سوف أمهلك حتى تعود البيت، ثم تبدلت ملامح جابر وهو يستطرد في هدوء باسم: وترى الأموال كذلك.

سار الرجلان إلى بيت شهاب، وما إن وصلا حتى صعد رئيس حراس السجن إلى منزله، وجلس مع زوجته يقص عليها الأمر، وبطبيعة الأم وعاطفتها الجياشة تجاه فلذة كبدها، لم تمهل زوجها حتى يفكر مليًّا فيما عرض عليه جابر.

الزوجة: يا شهاب، نحن مضطرون إلى ذلك، ليس لدينا اختيار، حياة ولدنا في خطر، فلتطلق سراحه، ولئن كان مجرمًا سوف يأخذ جزاءه عند ربه، أما نحن فلا يمكن لنا بأي حال أن نفرط في ولدنا الوحيد.

بدت الكلمات مقنعة تتوافق مع ما يميل إليه شهاب، فتابعت زوجته: لقد نسيت أن أخبرك، جاء رجلان بهذا الجوال عندما مشيتَ مع ذلك الغريب.

نهض شهاب لكي يفتح الجوال، وما إن فعل حتى شهق وزوجته في وقت واحد ينظر كلاهما إلى الآخر ثم يحملقا من جديد في تلك الأموال التي اكتظ بها الجوال.

سألت الزوجة شهاب وقد سال لعابها: لمن هذه الأموال الطائلة يا أبا علي؟

أجابها شهاب: إنه مقابل إطلاق سراح القاتل منصور، جزء للحراس حتى يتكتموا على الأمر، والبقية لنا.

التمعت عينا الزوجة وهو تقول: هو خير لنا من كل جهة يا شهاب، نسترد ولدنا، ونصير أثرياء

هز شهاب رأسه، لو لم يكن الأمر يتعلق بولدنا ما قبلته يا رقية.

قالها شهاب ثم أشار من النافذة إلى جابر لكي يدخل إلى المنزل، وجلسا ليضعا سويًا الخطة، خطة هروب المنصور، وتسليم الصبي لوالده.



الهـــروب

لم يبت شهاب في تلك الليلة بمنزله، وإنما أخذ شطر المال إلى حيث عمله في السجن، وما إن وصل إليه، حتى جمع خمسة من الحـراس المقربين لديه مـن الذين يقضـون نوبتهم الليلية التي تنتهي وقت الضحى.

وظل شـهاب يـسرد عـلى أسـماعهم تفاصيل مـا حدث في تلـك الليلـة، وكيف أنه مضطر لفعل ذلـك، وأخرج لكل واحد منهم نصيبه حتى سـال لعابـه، وجعلوا جميعا يدعمون موقفه.

شهاب: مقدر لكم صنيعكم، وقد اخترتكم أنتم لمكانتكم مني، ولكن ما الذي يضمن لي أن أحدًا منكم لن يتفوه بكلمة واحدة؟

نظـر الحراس بعضهم إلى بعض، ثم قال أحدهم: وكيف نجرؤ على ذلك وأنت قائدنا؟

شهاب: هذا الكلام لا يسمن ولا يغني من جوع.

حـارس آخر: نحن رهن أمرك يا سـيدي، مرنـا بما تريد وخذ منا ما تريد من ضمانات.

أخرج شـهاب من ثيابه عدة أوراق متشابهة، وأعطى كل واحـد منهم واحدة، وشرعـوا جميعًا في قراءتها وقد اتسـعت أحداقهم من فرط الدهشة.

شـهاب: هـذا اعـتراف بأننـا جميعًـا تشـاركنا في تهريـب السـجين، وكل ورقة منها سـوف تحمل توقيعنا جميعًا، فإذا ما حاول أحدنا إغراق صاحبه غرقنا جميعًا، هل لديكم اعتراض على ذلك؟

الجميع بصوت واحد: نعم الرأي.

شهاب: وأنا أولكم.

شرعـوا جميعًـا في التوقيع على نُسـخ الاعـتراف، وما إن فرغوا حتى بدأ شهاب يرسم الخطة.

«بقـي هنـاك في نوبة الليل خمسـة آخرون، سـوف أصدر لهم أمرا بالانصراف، وتبقون معي إلى أن يتم مبادلة السـجين بولدي عليّ، وينبغي أن يكون هذا بعد الفجر مباشرة مع بزوغ الصباح قبل أن يأتي الحراس المناوبون بالنهار في الضحى، هل وعيتم ما أقول؟

أومـأ الحراس الخمسـة جميعـا في وقت واحد برؤوسـهم وهم يرددون: نعم يا سيدي.

اسـتطرد شهاب: وسوف أكون عند بوابة السجن ومعي ثلاثة منكم، نتأكد من أن أصدقاء السـجين يقفون على مسافة مناسـبة محددة سـلفًا ومعهـم ولـدي، وأما الاثنـان الآخران فسـوف يقتـادان المنصـور مـن حجرته بعـد أن آذن لهـا، ثم ينتظران على باب الحجرة حتى أرسـل إليهم ثالثًا ليأتوا جميعًا إلى بوابة السجن، هل هذا واضح؟

الحراس: نعم يا سيدي.

نظر إليهم شـهاب في توتر وأسـى وهـو يقول: صدقوني يـا أبنائي، لو لم يكن الأمر يتعلق بحياة ولدي، لما وافقت على ذلـك مقابل كنـوز الأرض، لكنني أب، وهـو ولدي الوحيد رزقت به على الكبر، فأنا مضطر لذلك.

قال أحد الحراس: نعرف يا سـيدي هذا جيدا، نحن على يقـين منه، وأنا نيابة عن زملائي أقـول: خذ هذه الأموال، فما نفعله إنما هو مراعاة لمشاعرك كأب.

تبسم شهاب وهو يقول: لو لم يكن هؤلاء قد أعطونا الأموال، لكنت طلبت منك نفس المطلب في أن تساعدوني.

قال حارس ثان: سيدي وماذا لو سأل قائد الشرطة عن قبر السجين الذي من المفترض أن نقوم بإعدامه؟

ابتسم شهاب، لا تعبأ بالأمر، أصدقاؤه قد جهزوا كل شيء، وقاموا بتجهيز قبر على أساس أن صاحبهم سوف يدفن فيه، أو هكذا سيعرف الناس، والآن انصرفوا راشدين إلى أماكنكم، وأنا سوف أصدر أوامري لزملائكم بالانصراف.

ظل الحراس الخمسة تتقلب مشاعرهم بين التوتر من انكشاف الأمر، وبين طول التأمل في تلك الأموال التي جعلت كل واحد منهم ينسج أحلاما جديدة، بينما كان شهاب لا يشغله سوى ولده الوحيد، ويخشى أن يغدر به اللصوص.

وما إن بزغ ضوء الصباح حتى لاح أصحاب المنصور من بعيد، فأشار شهاب إلى اثنين من رجاله ليذهبا إلى حيث المنصور.

وأما شهاب فقد ذهب إلى رجال المنصور خارج البوابة، ورأى بينهم ولده عليا وهو يقول باكيًا: أبي، أنقذني.

وبينما كان إبراهيم يضع خنجرًا في ظهر الصبي حتى لا يفكر أحد في مهاجمتهم، قال شهاب: لا تخف يا ولدي، ما هي إلا لحظات حتى تكون بين أحضاني، لا تخش شيئًا يا علي، فقط ابق مع الرجال في هدوء وصمت ولا تحدث أي ضوضاء.

هز الغلام رأسه موافقًا، فقال سعد في حزم: هيا يا رجل، أعطنا رجلنا وخذ ولدك، لا تضيع الوقت.

أشار لهم شهاب في قلق: حسنًا حسنًا، سوف يكون كل شيء على ما يرام.

قالها وانصرف إلى حيث رجاله فأمر أحدهم بالتوجه إلى حيث يقف زميلاه مع المنصور على باب حجرة السجن، فما إن اقترب حتى سمع صراخ المنصور وهو يخاطب ابن عربي بصوت مبحوح: «فتنتني بمعسول حديثك، قمت باستغلال جهلي بدين ربي، لكنه أرحم الراحمين أيقظ شيئًا في أعماقي وانشرح صدري لكل كلمة تفوهت بها الآن، سوف أقبل

على ربي معترفًا بجرمي، وظني به أنه سيقبلني ويغفر زلاتي وغدراتي».

توجه الحراس الثلاثة بالمنصور والذي سار معهم بخطوات ثقيلة جراء الأغلال والقيود، زادتها رهبة الموقف ثقلا، وهو ينظر إلى السماء ويردد: ياااااااارب يااااااااااارب.

وما إن وصل معهم إلى حيث بوابة السجن، حتى أمر شهاب بفك قيوده وأغلاله، بينما كان المنصور ينظر إليهم بدهشة، وهو لا يدري ما الذي يحدث من حوله.

شهاب: يبدو أن هناك من يريد لك الخير والبقاء على قيد الحياة أيها القاتل، ولولا ولدي الوحيد لما منعني مخلوق من قتلك بيدي.

زادت الكلمات من دهشة المنصور فألجمته عن الحديث في موقف لم يستوعبه بعد، فوضع ثلاثة من الحراس خناجرهم في ظهر وشِقي المنصور، بينما سار شهاب أمامه وهم يتقدمون صوب أصدقاء السجين، والذين تحركوا بدورهم للأمام في خطوات هادئة وهم يضعون خناجرهم أيضًا في جسد الصبي.

ومـا إن وقفا الفريقان على مسـافة محددة، حتى بدآ في آن واحد رفع السـلاح، فبدأ المنصـور يخطو نفس الخطوات التي يخطوهـا الصبي حتى تقابلا في منتصـف الطريق فما إن توازيا حتى انطلق كل منهما ركضا إلى فريقه، في الوقت الذي برزت خيول يقتادها عبد الملك ورافع وكأنما خرجت من فراغ.

وبخفة ورشاقة اتسم بها أعضاء الفريق قفزوا على ظهور الخيل، لتنطلق بهم تسـابق الريح، وسـط صرخات الفرح من رجال المنصور.

وأما شـهاب فـما إن وصل إليـه ولده حتـى عانقه وحمله من الأرض ليغرقه بدموعـه، وينظر بعدها متعجبا إلى هؤلاء اللصـوص وقد بدأ سـوادهم في التلاشي، وهـو يفكر في هذا التفـاني والإخـلاص والوفاء لـدى هؤلاء المجرمـين، ليختم المشهد بقوله: من يدري؟ ربما.



معًا من جديد

جلس أيوب في الغار ممسكًا بسيفه، لا تفارق عيناه الشرطي بدر، والذي كُبل من قدميه ويديه من خلف ظهره بإحكام، وقد بدا عليه التوتر من تلك الكلمات التي يتحدث بها العبد أيوب:

« ادع الله أن ينجي سيدي المنصور، فإن رجع فسوف نطلق سراحك، وأما إن عاد الرجال بدونه، فسوف تكون طعمة للسباع».

كان قلب الشرطي يخفق لتلك الكلمات التي جعلت حياته رهن عودة المنصور، فاستطرد أيوب: وإن كنت أرى أنك تستحق القتل على كل حال، أنسيت الشاب أحمد الذي أفقدتموه عقله؟

أجابه الشرطي في وجل: كنت أنفذ أوامر قائد الشرطة فحسب يا سيدي، ولقد أخبرنا أن الشاب يخطط للقتل، وأنه مجرم مدان، فقط كنت أنفذ الأوامر.

أيوب: ترى هل نجوت يا سيدي أم أنه ما زال في العمر ملتقى؟ ترى، هل..

«لا بكاء، لا دموع أيها العبد».

ما إن وصلت العبارة إلى أذني أيوب حتى التفت إلى مصدر الصوت والذي لم يكن سوى المنصور الذي وقف على باب الغار باسطًا يديه متبسمًا في وجه أيوب، فإذا بالعبد يقفز من مكانه ويجري بل يطير ناحية المنصور ليرتمي بين أحضانه باكيا وقد اختلطت كلماته ببكاء الفرحة وهو يقول: سيدي المنصور، سيدي المنصور، خلت أنني لن أراك ثانية، الحمد لله على سلامتك يا سيدي فديتك بروحي.

المنصور يضربه على رأسه مداعبًا: ألم أقل بلا دموع وبكاء أيها العبد؟

ضحك أيوب وهو ما زال يعتصر المنصور معانقًا وهو يقول: لا دموع ولا بكاء يا سيدي.

سأل أيوب في دهشة: ولكن أين الرجال يا سيدي المنصور؟

المنصور: يمسحون المنطقة حتى يتأكدوا أن أحدًا لم يتبعنا إلى هنا.

وقعت عينا المنصور على الشرطي بدر، والذي كان ينظر في استعطاف، يخشى أن يكون مصيره الموت.

المنصور: أما زال هنا؟

أيوب مبتسمًا: انتفعنا بوجوده كثيرًا لما لديه من معلومات عن منزل قائد الحراس شهاب وبيته وولده ونحو ذلك.

هز المنصور رأسه وهو يخاطب الشرطي بهدوء: لا تخف سوف نطلق سراحك، هل تطعمه جيدًا يا أيوب؟

نظر أيوب بدهشة عارمة إلى اهتمام المنصور بالشرطي فأجاب: نعم يا سيدي، يأكل من طعامنا ويشرب من شرابنا.

دخل رجال المنصور «عبد الملك، وسهم، ورافع، وسعد، وإبراهيم، وجابر» إلى المنصور وهم يصرخون ويرقصون فرحا، وجعلوا يحملون زعيمهم على الأعناق ويجوبون به أنحاء الغار كأنه عروس يزف إلى عروسه.

«أنتم إخواني الذين لم تنجبهم أمي، أحبكم، أحبكم، نحن معًا من جديد يا أصدقائي».

قالها المنصور في تأثر بعدما نزل من على أكتاف رجاله، فعانقه الجميع دفعة واحدة، فكأنما تذكر شيئًا فسألهم بغتة: أين عطاء؟ ألم تخبروني بأنه ينتظر في الغار مع أيوب؟

صمت الجميع فجأة، ولم يقدموا لسؤاله جوابًا سوى أنهم أطرقوا برؤوسهم إلى الأرض، فصرخ المنصور فيهم: ماذا دهاكم؟ أين عطاء؟

ربت عبد الملك على كتف المنصور في هدوء قائلًا: لم نشأ أن نفجعك ونحن في طريق الهروب.

المنصور: تخبروني بماذا؟ هل، هل...

كررها المنصور وكأنه لا يريد أن ينطق بما وراءها، فحسم سعد الأمر قائلًا: لقد مات يا منصور.

جثا المنصور على ركبتيه من هول الصدمة وهو يقول: عطاء مات؟ عطاء مات؟

افترش الفريق بأسره الأرض يواسون زعيمهم، والذي كان قد وضع وجهه بين كفيه يهز رأسه، فاحترم رجاله صمته، فظل على حاله برهة ثم التفت إليهم وقد أغرقت دموعه وجهه وهو يسألهم: كيف ومتى حدث ذلك؟

سرد عليه أصحابه ما جمعوه من معلومات حول مقتل عطاء، فما زاد الأمر المنصور إلا حزنًا وحسرة على ذلك الصديق الذي ألقى بنفسه بين فكي الموت من أجله، ثم خيم الوجوم والصمت في الغار ساعات طوال.

مرت أيام تلو أيام على هروب المنصور، انتقل وفريقه بعدها إلى مكان آخر بعدما أطلقوا الشرطي الأسير لديهم، إلا أن أصحاب المنصور قد وجدوا من أمره عجبًا، لقد تغير حاله تمامًا.

فلأول مرة منذ أن عرفوا المنصور يجدونه راكعًا ساجدًا، يسهر الليل على تلاوة القرآن، ونسي أمر النهب وقطع الطريق، فجعل الرجال يتناجون في ذلك الشأن.

همس سعد لأصحابه: ما بال المنصور؟ ما الذي حدث له؟

همس رافع بدوره: أَلِأنه يصلي؟ وهل ذلك شيء عجيب يا رجل؟

أجابه سعد وهو يخفض صوته: لا أعني الصلاة وتلاوة القرآن يا رافع، وإنما أعني العمل، إنه لم يتحدث منذ هروبه من السجن عن أي عملية جديدة.

تدخل إبراهيم: نعم يا سعد، ولست أدري هل سنظل على تلك الحال دون عمل لفترة طويلة؟

جابر: لماذا لا نكلمه، لقد انتظرنا فترة ريثما يسترد عافيته وينسى ذلك الحدث الجسيم.

عبد الملك: نعم نتحدث إليه في هذا الشأن.

قام الرجال إلى حيث يجلس المنصور في ركن الغار بينما كان أيوب غارقا في النوم، فابتدأ سهم بالحديث: يا زعيم نريد أن نتكلم معك في أمر هام.

اعتدل المنصور في مجلسه وهو يمنحهم ابتسامة هادئة: على الرحب والسعة يا رفاق، قولوا ما بدا لكم.

جابر: متى سنبدأ العمل يا زعيم؟ مضت علينا فترة طويلة ونحن هنا بلا عمل.

نهض المنصور من مكانه في هدوء وصمت لينهضوا جميعا من بعده، فأولاهم ظهره ومشي بعض خطوات قصيرة هادئة، ثم قال دون أن يلتفت إليهم: أعلم يا أصدقائي أنكم ستحدثوني في هذا الشأن.

صمت برهة ثم استدار إليهم قائلًا: وصدقا كنت أحاول إعداد إجابة لهذا السؤال؟

رافع: ماذا دهاك يا منصور؟ لماذا تبدو غامضا منذ عودتك؟ فيم تفكر؟

رفع المنصور وجهه لسقف الغار لحظات التزم فيها الصمت ثم عاد ليقول: حسنًا لا يجدي سوى أن أصارحكم بأنني...

إبراهيم في دهشة: بأنك ماذا يا منصور؟

المنصور: لن أعمل قاطع طريق وقاتلا مأجورا بعد الآن.

شهق معظم الرجال في الوقت الذي برز أيوب فجأة بينهم وقد تهللت أساريره قائلًا: كنت أعلم أنك ستفعلها منذ أول يوم رأيتك فيه.

«اصمت أيها العبد».

نطق بها سعد في قسوة، فانزوى أيوب إلى مكانه مرة أخرى، فتابع سعد: ماذا دهاك يا منصور؟ هل فقدت عقلك؟ هل أصابك الخور؟

أجابه المنصور في هدوء: لا يا سعد، بل عاد إلي عقلي وقلبي أيضًا.

نظر إليه الجميع في دهشة وقد التزموا الصمت وهم يستمعون إلى المنصور الذي بدا كشخص آخر تمامًا إذ يقول: صدقوني يا رجال، نحن نركض نحو سراب، لقد عشت لحظات الموت، تمنيت فيها أن يطيل الله في عمري عاما واحدا، لكي أستعد للقائه، لكي أحيا كما ينبغي أن يعيش الإنسان الذي كرمه ربه.

جعل بعضهم ينظرون إلى بعض وقد تملكتهم الدهشة إزاء حديث المنصور، والذي تابع وهو يمنحهم نظرات تفيض ودًا: أنا لم أعد زعيمكم، ولا أستطيع أن أجبركم على طريق لا ترغبون في سلوكه، لكني أتمنى ذلك لكم من سويداء القلب، فأنتم أهلي وإخواني وأصدقائي، أريد لكم من الخير مثلما أريد لنفسي، لماذا لا نعيش بين الناس في أمان؟ نأكل من عمل أيدينا ومن كدنا وسعينا، يكون لكل منا أسرة وذرية.

بدا الكلام وقد خرج من قلبه إلى قلوبهم، فظهر أثره على الوجوه، فقال عبد الملك: كيف يا منصور، وأيدينا لا تعرف غير السيف؟

المنصور: لا يا عبد الملك، لم نولد والسيوف في أيدينا، كما تعلمنا الضرب به على الأعناق، نتعلم كيف نزرع ونحصد أو نصنع ونبيع، أو نعمل بالتجارة، والأرزاق بيد الله.

سهم: أنسيت أننا مطلوبون أحياء أو أمواتًا يا منصور؟ من أين لنا بهذا الأمان.

أجابه المنصور في لهفة: سوف نرتحل يا صديقي، أرض الله واسعة، نذهب إلى أرض لا يعرفنا فيها أحد ونعيش كما يعيش الناس، سوف نسافر إلى غزة

بدا إبراهيم كطفل يحلم وهو يقول: ويكون لي أولاد ويناودنني: أبي أبي؟

المنصور: نعم يا إبراهيم، ونشعر بقيمة حياتنا، ونعوض ما فات من أعمارنا.

صمت الجميع فما عادت غير النظرات المتساءلة الحائرة، فوقف المنصور في صمت في وسط الرجال وهو يبتسم ويمنح كلا منهم نظرية حانية، ثم بسط يده وهو يقول: نعيش سويًا ونموت سويًا؟

لم يتحرك أحد من الرجال وظلوا أسارى صمتهم، حتى اقتحم أيوب الحلقة تجاه المنصور، فوضع يده على يده قائلًا: وحتى آخر لحظة في حياتي يا سيدي.

ظل المنصور باسطا كفه تحت يد أيوب برهة وهو يقلب بصره في أصحابه الذين خيبوا آماله، فهز رأسه وهو يغالب دموعه ويرفع يده اليسرى ليضعها على يد أيوب وهو يقول: وهذه أرجوها لعطاء، أحسبه كان سيضعها.

تحرك إبراهيم من مكانه وهو يقول: أنت زعيمي في الباطل، لن أرضى بزعيمًا غيرك في الحق.

قالها إبراهيم ثم وضع يده فوق يد المنصور، فالتفت الأخير إلى بقية رجاله، ليقروا عينه واحدًا تلو الآخر يضعون أيديهم فوق الأيادي المتراصة.

«فلتذهبوا إلى الجحيم أنتم وزعيمكم».

صرخ بها سعد وهو يلملم أشياءه للرحيل، فرد عليه عبد الملك: إياك أن..

أسكته المنصور بإشارة من يده وهو يقترب من سعد، ويحاول إثناءه عن الرحيل بعيدا عنهم.

المنصـور: لا تفارقنـا يا سـعد، ابـق معنا، لا تشـتت هذه العائلة وتفقدها واحدا غاليا، لا تفعل يا سعد.

نظر إليه سعد في ازدراء وهو يقول: لقد صرت ضعيفًا يا زعيم، صارت نفسك خانعة، ترضى أن تحيا ضعيفا كالعبيد.

صمت المنصور وهو ينظر إلى سعد يستعطفه، فتابع سعد: طالما لم تعد زعيمي، فإن علي شيئًا أريد أن أرده عليك.

نظر المنصور إليه في تساؤل، فما كان من سعد إلا أن هوى بكفـه على خد المنصور قائلًا: هـذه بتلك التي تلقيتها منك في حلب، عندما كنت زعيمي.

هـب الرجال في وقت واحد لكي ينالوا من سـعد إلا أن المنصور قد صرخ فيهم: كلا.

فتوقفت أقدامهم بغتة في أماكنها، بينما كان سعد يواصل صراخـه: هيا يا منصور، قاتلنـي، لقد نلت منك يا رجل، هيا قاتلني، أم أن الضعـف قد تمكن من قلبك؟ هيا قاتلني.

هز المنصور رأسه في بطء وهو يقول بهدوء: كلا يا سعد، ما كنت لأقاتل أخي وصديقي.

صمت سعد بعد تلك العبارة، ثم حمل صرة على كتفه وهو يتجه للخروج من الغار، فاستوقفه المنصور بقوله: سعد.

وقف سعد في مكانه دون أن يلتفت، فتابع المنصور: اعتن بنفسك.

غادر سعد الغار يشق طريقه في الحياة بمفرده، وخلف وراءه أحزانا خيمت على الوجوه، إلا أن أيوب أراد أن يخرج القوم مما هم فيه فقال: سيدي المنصور، إلى أين سنذهب؟

التفت إليه المنصور في هدوء وهو يقول: سنذهب إلى غزة يا رفاق، هل تمانعون؟

هز الجميع رأسه نفيًا، فاستطرد المنصور، سوف أدخل حلب أولًا، فأعود بوالديّ، تأهبوا للرحيل يا أحباب.

العـــودة

سـار المنصور في طرقـات حلب متنكـرًا في صورة رجل متسول بعد أن أمسك بعصا يتكأ عليها ودهن لحيته بالبياض، وحنـى ظهره، ليصل إلى منزل والديـه في الوقت الذي يكون أبوه في سوقه.

وما إن وصل حتى طرق البيت، لتسأل أمه من الداخل: من الطارق؟

المنصور: أعطونا مما أعطاكم الله.

أحـضرت والدة المنصور شـيئًا من طعام لتدفعه إلى ذلك السائل، فما إن فتحت حتى دخل المنصور بسرعة بعد أن تيقن مـن خلو الطريق من المـارة، فما إن دخل حتى اسـتوت قامته وقال: أمي، أمي.

لم تصـدق الأم ما رأت فشـهقت بفرحة عارمة: منصور، ولدي.

تعانق الابن وأمه وطال العناق، وسالت الدموع، بينما تقول والدة المنصور: الحمد لله أني عشـت حتـى أراك ثانية يا ولدي، كنت أشعر أنك ستعود، كم اشتقت إليك يا قرة عيني.

ترك المنصور حضن أمه الدافئ ويمسك بكتفيها وينظر إليها بعينين قد أغرقتهما الدموع وهو يقول: لقد عدت إليك يا أمي، عدت إليك بعد أن فتح الله لي باب الأمل، لقد تركت ما أنا عليه يا أماه.

شهقت الأم فرحًا بعد أن زف إليها ذلك النبأ الذي انتظرته طوال تلك السنوات، ولم تكف يومًا عن التضرع إلى الله في أن يحقق لها تلك الأمنية، فخرت على الأرض ساجدة لله تعالى وهي تغرق الأرض بدموعها وتقول: إلهي لك الحمد ولك الشكر، يا سميع الدعاء، لم تخيب رجائي فيك، لك الحمد والشكر يا الله.

جثا المنصور على ركبتيه وهو يربت على رأس أمه في حنان، وهو يقول: سوف نرحل من هنا يا أمي، ونسافر بعيدًا ونبدأ حياة جديدة، لقد أتيت لكي آخذك ووالدي معي إلى حيث أذهب.

ابتسم المنصور وهو يقول: أمي أريد منك أن تذهبي إلى والدي في السوق، وتخبريه بالأمر، وأنني عدت إليه ألتمس رضاه، فأخشى إن رآني فجأة أن يصدني قبل أن يسمع مني.

أمسك بيديها لكي ينهضها من الأرض وهو يقول: هيا يا أمي، فلتذهبي إلى والدي في السوق.

نظرت الأم في صمت إلى عيني ولدها، والذي قال: أراك تخشين ألا يقبل بي أبي بعد كل ما اقترفته، أليس كذلك يا أمي؟

هزت الأم رأسها نفيًا وهو تقول: أبوك راض عنك كل الرضا يا منصور.

تهلل وجه المنصور وهو يهتف: أحقًّا ما تقولين يا أماه؟ الحمد لله على نعمه المتتالية، إذا هيا لا تضيعي الوقت واذهبي إليه.

صمتت الأم مرة أخرى إلا أنها انفجرت في البكاء وهي تنظر في وجه المنصور، والذي اتسعت عيناه رعبًا، وهو يسألها بحذر وكأنه يخشى أن يسمع منها ما يدور في عقله: أمي، أين أبي؟

لم تجب الأم بأي كلمة، سوى أنها ارتمت بين أحضانه باكية منتحبة، بينما هوى المنصور أرضًا ولم تحمله قدماه، وجعلت دموعه تسيل في صمت، فقام يهرول إلى ملابس والده

وهو يترنح، فما إن أمسك بها حتى جعل يشتمها كالمجنون وهو مغمض العينين ينوح كالصبيان، ويضعها على وجهه ويقبلها، وينتحب قائلًا: «واااااااااه يا أبي، جئتك متأخرًا، جئتك متأخرًا».

تمالكت الأم بكاءها وهي تربت بحنان على كتف المنصور وتقول له بابتسامة دامعة: والدك مات وهو عنك راض يا منصور، لم يغضب عليك يومًا قط، كان مستاء من أفعالك إلا أن صورتك لم تفارق مخيلته يومًا، ولم يكف عن الدعاء لك، هكذا أخبرني يا منصور قبل موته.

زادت الكلمات ولدها عويلا وبكاء وهو يعاود تقبيل ثياب والده: اشتقت إليك يا شيخ همام، اشتقت إليك، آآآآآآآه يا والدي آآآآآآآه.

ظل المنصور ساعات طوال يتقلب بين البكاء والصمت الحزين والحديث عن والده، حتى جن عليه الليل ولم تجف دموعه، ما كان يقطع عليه حبل الأحزان سوى أن يدخل في الصلاة، فيملأ سجوده تضرعا لربه أن يرحم والده ويجمع بينهما في الجنان.

توقف المنصور عن رواية قصته لابن عربي، فقال الأخير معترضا: لماذا توقفت يا منصور، أكمل يا رجل.

المنصور: لقد طال الحديث يا شيخ، وأخشى أن أكون قد أرهقتك.

ابن عربي: أكمل يا منصور، لو لم يكن في عمري سوى القدر الذي أستمع فيه إليك لطلبت منك أن تكمل.

المنصور وهو ينظر إلى الشيخ في أسى: مسكين أنت أيها الشيخ المسن، تمني نفسك بأوهام، بسراب، تحسبه ماء زلالا وهو ليس بشيء، اغتنم ما بقي من عمرك، ودع عنك هذه الأفكار الرثة.

جعل ابن عربي يسعل وهو يقول: يا بني، أنا في واد وأنت في واد آخر، ولن نتفق، فدع الجدال جانبًا، وأكمل لي قصتك، إنها أمنية شيخ هرم، ألا تريد أن تشبع رغبته في أمر هين كهذا؟

هز المنصور رأسه وهو يقول: حسنًا، سأكمل الحديث، ولكني لن أدع المحاولة من جديد.

الحياة الجديدة

في تلك الـدار المتواضعة في غزة، جلس المنصور ورجاله يتناولـون طعـام الغـداء، بعدمـا عـادوا مـن عملهـم، عـلى وجوههـم آثار الكـد والجهد والنصب، لكنهـا ممزوجة بلون السعادة المزهر.

كانـت أم المنصـور ترمقهـم في حنـان وسـعادة وهـم يتصارعـون على الطعام ولا يكفون عن الضحك والمزاح، فما أروعهم من فتية أصفياء، أرادوا العيش النقي.

لقد مضى شهر على وصولهم إلى غزة، يمضون النهار من أوله في صيد الأسماك، ثم يبيعون ما رزقهم الله منها ويعودون، حياة هانئة وأخوة صادقة.

«ما أشهى طعامك يا أماه».

لم يكن المنصور هو الذي نطق بالكلمة، وإنما أخوه رافع، فكلهـم قد اتخذها أمـا، فتتابعت كلمات الثنـاء في تنافس على نيل رضا الأم الحنون.

إبراهيم: لن أتزوج من فتاة إلا من بعد أن تختبرها أمنا في طهي الطعام، فإن لم تكن بنفس مهارتها فلا حاجة لي بها.

ضحـك الجميع وتعالت ضحكاتهم، فرد عليه جابر: إذا فقـد منعت نفسـك الزواج طيلـة حياتك أيهـا الأبله، فكيف ستجد امرأة تصنع كصنيع أمي.

«ما رأيك في الطعام يا أيوب؟».

نطقتهـا الأم العجـوز في حنـان فإذا بأيوب يقـول لها: ما ألذه يا سيدتي.

نكزه المنصور بقدح في جانبه فقال أيوب: أقصد يا أمي.

عاود الجميع الضحك والمزاح، ولم يقطعه سـوى صوت طرقات على الباب، فقال المنصور: من؟

قال الطارق: عابر سبيل.

المنصور: أهلًا بك ومرحبًا.

عبـد الملك: لقد أدرَكنـا الرجل وقد أوشـكنا على التهام الطعام كله.

ضحك الرجال فقالت أم المنصور: على الرحب والسعة، يأتي الضيف برزقه يا ولدي.

وصـل المنصور إلى البـاب لكي يفتح الباب فـإذا به أمام مفاجأة أذهلته.

«أيها الأوغاد، أطابت أنفسكم أن تأكلوا بدوني».

المنصور وهو يصرخ فرحًا كالطفل: سعد، سعد.

عانـق المنصور صديقه العائد بل وحملـه وجعل يدور به، في الوقـت الذي انطلق بقية الفريـق وهـم يصيحون ويتبادلون العناق مع سعد، وكان يومًا مشهودًا، أحس فيه الرجال بفرحة لم تحمل مثلها سنوات أعمارهم كلها، فجلس الجميع يطعمون سعدًا بأيديهم محتفين به، وجعلوا يتجاذبون أطراف الحديث.

سـعد: منذ جمعـة أو يزيد وأنـا في غزة، أجـوب أنحاءها وأسـأل بيتًا بيتًا عن مجموعة من الرجال بأوصافكم ولم أتمكن من معرفة مكانكم سوى اليوم.

أم المنصور: حمدًا لله على سـلامتك يا بني، جمع الله بينكم على الخير دائمًا.

سعد: شكرًا لك يا أم المنصور.

قال سهم ممازحًا: حسبك هي أمنا جميعًا.

تبسم سعد: نعم هي أمنا، هي أمي، أمي، أمي.

جعل سعد يرددها في سعادة الأطفال وكأنه استعذبها ثم قـال: ما أجمل هذه الكلمة، لم أنطق بها منذ كنت في الثامنة من عمري.

رافع: كلنا هذا الرجل يا صديقي، فلنفرح إذا بأن وهبنا الله أما، وليست كأي أم.

نهض المنصور من مكانه وهو يقول: يا رجال، سوف أذهب لحاجة وأعود ليلًا.

أم المنصور: ماذا دهاك يا منصور، مضى عليك ثلاثة أيام وأنت تفعل نفس الشيء، خيرًا يا ولدي، ماذا هنالك.

تبسم المنصور قائلًا: سأخبركم لاحقًا يا أمي.

جابر: دعيه يا أمي، هكذا ولدك المنصور دائما، هيا امض لحال سبيلك يا غريب الأطوار.

ضحك الجميع بمن فيهم المنصور، والذي استدار خارجا، ليجوب مناطق غزة، ويسأل السكان كالذي يبحث عن شخص ما.

وصل المنصور في نهاية المطاف إلى أحد البيوت التي يبدو من منظرها أن أهلها من أوساط الناس، ليقرع بابه، فخرجت إليه طفلة صغيرة كأنها الشمس ساعة إشراقها.

سألها المنصور: أهذا منزل الشيخ النعمان؟

أجابت الطفلة: نعم إنه هو.

انحنى المنصور بقامته حتى يوازي هامتها القصيرة وهو يقول: أنت حفيدته أليس كذلك؟

ابتسمت الفتاة قائلة: أنا حفيدته سلمى، تريد جدي؟

ابتسم المنصور قائلًا: نعم.

«من بالباب يا سلمى؟»

قالها شيخ مسن وهو يتقدم صوب المنصور ثم قال: أهلا بك ومرحبا، تفضل يا بني، ادخل.

أوسع له الشيخ وأجلسه وأكرمه وأحسن ضيافته ثم سأله وهو يجالسه: هل لي أن أعرف من زائري الكريم؟

المنصور: أنت لا تعرفني يا شيخ، لكنني أعرفك، اسمي المنصور، سكنت غزة حديثًا.

ابتسم الشيخ وهو يقول: حسبي أنك ألقيت تحية الإسلام علي يا ولدي وكفى بذلك معرفة، أهلا بك ومرحبا يا بني.

جعل المنصور يحكي للشيخ عن قصته مع ابنته حين أسرها رفاقه، وعن تلك الكلمات التي نطقت بها وأثرت في نفسه، فما كان من الرجل إلا أن نهض من مكانه وعانق المنصور، وهو يقول: أنت المنصور، ذلك الرجل الشهم النبيل؟ سبحان الله، قدر الله لي أن أراك.

«تعال يا مصعب، ألق السلام على ضيفنا الكريم.

قدم الطفل ليصافح المنصور والذي قبله بين عينيه، ثم وجه حديثه إلى الشيخ قائلًا: أخبرتني أم مصعب في اليوم الذي رأيتها فيه أنك مقرئ لكتاب الله.

أومأ الشيخ برأسه قائلًا: نعم يا بني.

المنصور: أنا يا سيدي بدأت حياة جديدة تحللت فيها من كل قيود الماضي.

تهللت أسارير الشيخ وهو يقول: الحمد لله يا ولدي، الحمد لله، لقد حدثتني عنك صفية وعن صنيعك معها، ساعتها قلت هذا الفتى سينعم بالهداية إن شاء الله، لأن الذي يفعل ذلك هو صاحب قلب حي رحيم، والرحماء يرحمهم الرحمن، وكان ظني ورجائي في الله أن يتوب عليك، وتضرعنا كثيرًا لله في أن يهديك ويقيمك على الصراط المستقيم، وكثيرًا ما كانت ابنتي تذكرك بالخير حتى قبيل سفرها.

المنصور: سافرت إلى أين؟

ابتسم الشيخ قائلًا: تزوجها عم أولادها وأقامت معه في البصرة، وأما مصعب وسلمى فقد تشبثنا بهما وتشبثا بنا في المقام هنا.

ذرفت عينا المنصور وهو يقلب فكره في أقدار الله ولطفه، وجعل يعانق الشيخ وهو يقول: أسألك بالله أن تدلني على الله، أتيتك مؤملًا أن ترشدني إلى كتاب الله والعمل بما يحب ويرضى.

ربت الشيخ على كتفه وهو يقول: بل إني لأسألك أن تمنحني ذلك الشرف يا ولدي، أنت من الآن ولدي، وأنا أبوك في حياتك الجديدة.

الفـــراق

جعل المنصور يرتشف ذلك الشراب الذي قدمته الجارية، في الوقت الذي كان ابن عربي يتمنى لو أن المنصور سكبه في جوفه جرعة واحدة، فما عاد يطيق انتظارًا.

وضع المنصور الكوب وهو ينظر في وجه ابن عربي والذي ارتسمت علامات ذروة الوهن على وجهه، وود لو توقف عن الحديث إلا أنه يدرك أن فضول الشيخ لن يدعه حتى يفرغ ما بجعبته، فتابع حديثه قائلًا:

«تحول بيت الشيخ النعمان بعد ذلك اللقاء إلى مدرسة لتعليم القرآن، أتردد ورجالي يوميًا عليه، حتى قرأ أكثرنا كتاب الله كاملًا على يديه.

كان الشيخ يعاملني حقًا كولده، وبعد عامين من لقائي به لم يضن علي بالزواج من ابنته شقيقة صفية، فكانت تلك النبتة الصالحة خير زوجة، رزقني الله منها بولدين: عبد الله ومحمد، وكذا تزوج أصحابي وصارت لهم بيوت وذرية.

تنهد المنصور ثم قال: وتوفيت أمي منذ ثلاث سنوات ودفنتها بيدي في غزة، بعد أن أقر الله عينها برؤية أحفادها كما كانت تتمنى.

صمت المنصور قليلًا ثم قال: هذا كل ما حدث منذ أن فارقتك في السجن.

ابـن عـربي: قصة أعجب مـن الخيال حقًّا، ثـم زوى ابن عـربي مـا بـين حاجبيه اللذيـن تدلى الشـعر منهما وهـو يقول: ولكـن ما الذي ذكـرك بي بعد تلك السـنوات، خاصة وأنت تراني على الباطل كما تزعم، وأنني كدت لأرديك في الهاوية.

المنصور: لم أنسـك في يوم من الأيام يا شـيخ محيي الدين، كنت دائمًا أمامي، تذكرني بجهلي، كنت دائما تدفعني لأن أنهل مـن العلم بديـن الله، فقد كنتُ على شـفا الهلاك بسـبب ذلك الجهل، ولذا لم أتوانى في أن أتعلم على يد كثير من علماء غزة.

وكثيرًا ما كنت أتذكر تلك الحياة التي دبت في نفسي وذلك النور الذي أشرق في قلبـي وجعلني أردّ على أفكارك الضالة، شـعرت بأن فطرتي هي التي كانت تنطق وتتحدث وتجادل في تلك اللحظات القصيرة وأنا على باب حجرة السجن.

لكننـي أردت البصـيرة في الدين، رغبت في ألا أقع أسـيرًا للجهـل مرة أخرى، حتى أفاض الله علي من ميراث النبوة، وما زلت إلى الساعة أسير على ذات الطريق ألتمس العلم والمعرفة.

وتملكتني رغبة عارمة في أن آتيك وأسدي إليك النصح، عسى أن تعود إلى رشدك، وتتبع الحق.

ابـن عـربي وقد بدا يظهـر الحنق على قسـماته وهو يقول: اسـتمع إلي أنت يا منصور، مثلك أنـت ومن لقنك وعلمك،

تأخـذون العلم بالوسـائط، مالكم أنتم وممـن يتلقون عن الله دون واسطة؟

هـز المنصـور رأسـه في أسـف وهو يقـول: يا رجـل اتق الله، وكـف عن هذا الهراء، الأنبيـاء تلقوا من ربهم عن طريق الوحـي وأنت تزعم أنـك تتلقى عن الله بلا واسـطة، أفاقت منزلتـك منـازل الأنبياء والمرسلين؟ لـو قال النـاس بقولك لجعلـوا الشريعة ألعوبة تتقاذفها الأهـواء، تب إلى الله قبل أن يدركك الموت وأنت على هذه الحال.

تسـارعت أنفاس ابن عـربي وهو يحاول الصراخ في وجه المنصـور: إليـك عني، إليك عنـي، أنت جاهـل، لا ترهقني بجهلك.

هز المنصور رأسه مرة أخرى في أسف وهو ينهض قائلًا: نصحتنـي قبلك ذلك بالباطل، وأسـدي لـك اليوم النصيحة بالحق، ولكن الله يهدي من يشاء.

قالهـا المنصـور ثم خرج من منزل ابن عـربي، وما هي إلا خطوات قطعها حتى سـمع صراخ الجارية من المنزل: الشيخ محيي الدين قد مات، الشيخ محيي الدين قد مات، فما كان من المنصـور إلا أن قـال: إنا لله وإنا إليه راجعـون، وجعل يتفكر في نعمـة الله عليه أن أيقظه قبـل أن يموت على ذات الأفكار، فرفع رأسه للسماء: ياااااارب، يااااااارب.

البــوارق

غزة بعد تسع سنوات عام ١٢٤٩م

أقيـم لصلاة العشـاء في ذلك المسـجد بأحـد أحياء غزة، ليتقدم رجل يصلي بالناس بصوت خاشع ندي، لم يكن سوى المنصـور الـذي أشرف على بلوغ الخمسـين من عمـره، ومن خلفه يصلي أصحابه وسكان الحي.

وفي طريـق العـودة إلى بيوتهم المتجاورة التـي ينم تقاربها عـلى تقـارب قلـوب أصحابهـا، تطـرق المنصـور ورجاله إلى حديث بدا أنه حدث الساعة.

المنصـور: هل سـمعتم بنبأ هجـوم لويس التاسـع ملك فرنسا على مصر؟

سـعد: نعـم، والأدهـى أن مدينـة دميـاط سـقطت في يـده، وصـارت مدينـة صليبيـة، وحولـوا جامـع المدينـة إلى كنيسة ونصبوا عليها أسقفًا.

إبراهيم: أخشـى أن يتمكن من الاسـتيلاء على القاهرة، وسـاعتها لن تخمد أطماعه في الاسـتيلاء على المزيد من بلدان المسلمين.

المنصـور: لم ينس هؤلاء الصليبيـون هزيمتهم هنا في غزة بمعركة الحربية[1] منذ خمس سنوات أمام جيش المصريين، ومن هنا أدركوا ضرورة إخراج مصر من الصراع حول الشام.

إبراهيم متبسمًا: يا له من يوم قضيناه في خضم أول معركة نخوضها في الحق، أتذكرون يا رجال؟

رافع: ومن ينسى يا إبراهيم؟ كانت إراقة الدماء فيها لها مذاق مختلف عن..

قاطعه جابر: لا تذكرنا يا رجل بالماضي.

ضحـك الرجال عـدا المنصور الذي بـدا متجهما، ما أثار التسـاؤلات لـدى أصحابه الذيـن خبروا المنصـور طيلة هذه السنين، فقال سهم وهو يضيق من عينيه مازحا: بم تفكر أيها الزعيم؟

المنصور: أترون يا رجال أنه يليق بنا أن نجلس ها هنا في أمان، والصليبيون يعبثون بأرض مصر؟

جابر: هات ما لديك يا رجل.

---

(١) معركـة حقيقيـة وقعـت شـمال شرق غـزة عـام ١٢٤٤م، بـين تحالـف للصليبيين مع أيوبيين انفصاليـين مـن جهـة، والجيـش المـصري التابـع للسـلطان الصالح أيوب مـع قوات خوارزمية من جهـة أخرى. انتهت المعركة بفوز الأيوبيين المصريين.

أيوب: أعرف فيما يفكر سيدي المنصور.

ابتسم المنصور قائلًا: قلتها وسمعتموها، هل نفعلها؟

جعل أصحابه يهتفون: فلنفعلها، الأمر لا يستحق التفكير، على بركة الله.

وفي المنصورة الواقعة على الضفة الشرقية لفرع دمياط من نهر النيل، عسكر الجنود المصريون وتوافد إليهم المجاهدون من بلاد الشام والمغرب الإسلامي، لاستنقاذ البلاد من أيدي الصليبيين.

وبينما رابطت السفن الحربية المصرية في النيل تجاه المدينة، كانت هناك عمليات خاطفة يشنها العوام غير النظاميين، على معسكرات الصليبيين، لاستنزاف قوتهم، واختطاف جنودهم، وإرسالهم إلى القاهرة، حيث يطاف بهم بين أحياء مصر لبث الثقة والشجاعة في القلوب الوجلة.

وكان للمنصور ورجاله والذين اعتادوا الهجوم الخاطف زمنا، نصيب وافر من الإغارة على معسكرات الصليبيين والتنكيل بهم، حتى عرفت هذه المجموعة باسم «البوارق».

وبعد أن قرر الصليبيون الزحف إلى القاهرة بعد وصول إمدادات، خرجوا من دمياط حتى وصلوا إلى بحر أشموم، والذي

أصبح حاجزًا يفصل بين الصليبيين وبين معسكر المسلمين على الضفة الأخرى وقاموا بتحصين مواقعهم بالأسوار والخنادق ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين.

وفي ذات ليلة، كان المنصور ورجاله يتعاهدون على تنفيذ مهمة صعبة بالسباحة في الماء إلى الجانب الآخر حيث معسكر الصليبيين.

المنصور مبتسمًا: أتروني قد هرمت يا رجال على مثل هذه المخاطرة؟

جابر: يا رجل، ألأجل ذلك الشيب الذي خط فوديك تقول ذلك؟ أنت لم تصل إلى الخمسين بعد.

رافع: عسى الله أن يمحو بها ما كان منا يا منصور.

المنصور وهو يهز رأسه موافقًا: نعم، صديقي، عسى الله أن يمحو بها ما كان منا.

قالها المنصور ثم بسط يده اليمن وباطنها لأعلى وهو يقول: نعيش سويًّا ونموت سويًّا؟

وضع كل من الرجال كفه حتى تراصت أيديهم وهم يكررون العبارة التي ألفوها: نعيش سويًّا ونموت سويًّا، فوضع المنصور يده الأخرى قائلًا: وهذه لعطاء.

الورقة الأخيرة

انتهى الشاب عبد الرحمن من قراءة آخر أوراق القصة التي سجلها جده ذلك الشيخ الهرم، وقد احمرت حدقتا الشاب من طول السهر وجهد القراءة، وظل بعدها يقلب نظره في ذهول بين الكتاب وبين ذلك الشيخ الذي استسلم للنوم كطفل صغير.

«رباه، يا لها من قصة، لو كانت من واقع الحياة يا جدي فما أغربها، وإن كانت من وحي خيالك فأنى لك هذا؟».

حدث عبد الرحمن نفسه بتلك الكلمات فاستطرد وهو يحرك شفتيه في خفوت: شوقتني يا جدي لمعرفة خاتمة تلك القصة، ليتني لم أقطع عليك الكتابة في تلك الليلة.

تثاءب عبد الرحمن بشدة وهو يفرك عينيه، ثم تمدد على الأرض إلى جوار الأوراق وظلت مشاهد القصة تتراقص أمامه حتى لم يعد يرى شيئًا، حيث داهمه النوم فاستسلم له وغاب عن وعيه.

مرت ساعة منذ أن نام عبد الرحمن، ليستيقظ جده وهو يتحسس الفراش فافتقد حفيده، ثم نهض في وهن وهو يلتفت

يمينًا وشمالًا، ليجد عبد الرحمن ممدًا على ظهره على الأرض، فرق له وكره أن يوقظه، فدثره بعباءته.

التفت الشيخ إلى الأوراق التي لم تكن على حالها قبل أن يخلد إلى النوم، فتبسم وقد أدرك أن الفضول لم يترك حفيده حتى قرأها.

فجلس الشيخ على الأرض إلى المنضدة الصغيرة، وهو يقول: بقيت ورقة أخيرة يا بني لم تقرأها.

بسط ورقة بيضاء أمامه وظل يسرد آخر فصول القصة، فكتب:

«لم يحص المنصور ورجاله عدد الرجال الذين ذبحوهم وهم نيام في معسكر الصليبين، ولم يشعروا سوى بصيحات الجند تنبئ بوجود متسللين، فما كان من الرجال إلا أن ألقوا بأنفسهم في الماء لكي يغوصوا من جديد عائدين إلى الجانب الآخر من البر.

وبدأت السهام المشتعلة تضيء الظلام وهي تنهمر على البوارق، والذين غاصوا تحت الماء حتى يتفادوا الإصابة بها، ثم يصعدون إلى أعلى لالتقاط الأنفاس، بعد أن أمرهم

المنصور بالتفرق في الماء حتى لا يكونوا هدفا سهلا، لكنه رأى العبد أيوب وقد تخلف عنهم بعدما أصاب سهم جسده الهزيل.

غاص المنصور إلى حيث مكان أيوب وجعل يسبح به تجاه الشاطيء، والذي سبق إليه بقية الفريق.

أصيب المنصور أيضًا بسهم في ظهره، فتحامل على نفسه وهو يسبح بأيوب والذي صرخ في سيده: اتركني يا سيدي، اتركني وانج بنفسك.

غاص به المنصور ليتفادى السهام ثم خرج به من بقعة أخرى في الماء وهما يلهثان، ويستأنفان رحلتهما إلى الشاطئ، في الوقت الذي وصل بقية الفريق إلى البر وألقوا بحبل طويل في الماء.

كان أيوب قد بدأ يفقد وعيه جراء إصابته، بينما كان المنصور ينزف ويشعر بتهالك، لكنه لم يعبأ بذلك، وأمسك بالحبل يطوق به أيوب من تحت إبطيه، وبدأ رجاله يسحبون أيوب.

وأما المنصور فما كاد يحرك يديه ليتبع أيوب سابحًا إلى البر، حتى غاص سهم في قفاه جعله يتوقف عن الحركة ويغوص ببطء في الماء وليس فيه شيء حي سوى عينين ظلتا ترقبان الأصدقاء على البر في حنان بينما كان رجاله يصرخون باسمه من على الشاطئ.

بدت نظرات المنصور وكأنها تقول الكثير، كان آخر ما قالته كلمة وداع حانية لرفقاء الحياة، يمر أمامها شريط الذكريات، ومع اللحظة التي لامست فيها عيناه الماء أسدل الستار عن حياة ذلك الرجل: حياة المنصور.

وبينما كان رجاله يصرخون باسمه من على الشاطئ، ألقى رافع بنفسه في الماء كالسهم واتجه إلى حيث المنصور وغاص في أعماق الماء، بينما كان بقية الرجال لا تفارق أبصارهم الماء يرقبون ظهور الرجلين، لكنهما قد غاصا إلى الأعماق.

عاش أيوب زمنًا طويلًا وهو يعيش بتلك الذكرى، وود لو أنه كان بوعيه ليفتدي سيده بحياته، ذلك الرجل الذي جعله يشعر بإنسانيته، وكان له الراعي والأهل والوطن، لم يعرف طيلة حياته مثله، ولم يمر عليه يوم دون أن يبحر في

الذكريات بحلوها ومرها مع المنصور، ليعيش على أمل أن يلقاه في الجنان.

تم بحمد لله ومنته الفراغ منه فجر السبت، الموافق ١٦ من شهر صفر، عام ٦٧٩ من الهجرة».

كانت تلك هي الورقة الأخيرة التي سطرها الشيخ، جعل بعدها ينسق تلك الأوراق، ويدون عنوان قصته أعلى الصفحة الأولى.

نهض الشيخ إلى فراشه حاملًا كتابه، وكأنه يصطحب طفله لينام معه بين أحضانه، واستلقى على ظهره، وجعل ينظر إلى الكتاب ثم يعانقه وتسيل دموعه وهو ينتحب قائلًا: كم اشتقت إليك يا سيدي المنصور، كم اشتقت إليك.

وضع الكتاب بعدها على صدره يحتضنه بيديه، ليخلد إلى النوم على ذكرى المنصور، ذلك الكتاب الذي كان عنوانه: «الشيخ والقاتل المأجور».



فهرس

تمت بحمد الله